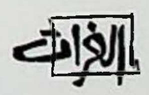
حيدر حيدر

مفقود

رواية







مفقود

• حيدر حيدر
• مفقـــــود
• جميع الحقوق محفوظة © Copyright
• الطبعــة الأولـــى 2016
• الناشـــــــر: ورد للنشــر والتوزيــع
سوريــة - دمشق، ص.ب: 30249، ☎ 5141441
• الفرات للنشر والتوزيع / الإدارة العامة
رأس بيروت - شارع عبلا - بناية بخعازي
بيروت - لبنان، تلفاكس: 750554 1 00961
E-mail: Alfurat@alfurat.com
• الفرات للنشر والتوزيع / المكتبة
شارع الحمراء - بناية رسامني - ص. ب: 6435 - 113
بيروت - لبنان
☎ 750054 1 00961 ، فاكس: 750053 1 00961
E-mail: sales@alfurat.com
• لوحـــــة الغلاف: أحمد معلا
• الإشـــراف الفني: د. مجد حيدر

جميع الحقوق محفوظة، ولا يسمح بطباعة أو ترجمة هذا الكتاب كلياً أو جزئياً، بأية وسيلة من الوسائل، دون إذن خطي مسبق من دار ورد.

Copyright © 2016 by Haidar Haidar
© Ward for publishing and distribution
All rights reserved. No part of this publication may be reproduced or transmitted in any form or by any means, electronic or mechanical, including photocopying, recording, or any information storage and retrieval system, without permission in writing from the publisher.

حيدر حيدر

مفـقـود

رواية

الغريب

وحدَه يقطع الحدود

لابساً وردة المساء

وحده يُسرج النهار

تائهاً بلا وطن.

طائر العنقاء ينمو في الرماد

طالعاً من جسد الموت

إذ الموتُ الصَّدى.

حينما النجمةُ تولد في المساء

يعبقُ الورد ويختال الوطن

آه. يا ريحَ الوطن.

وحدَه في هدأة الليل

يغني

كالغريب

لبلادٍ في الضُحى كانت بهية

لبلادٍ في المسا صارت سبيّه.

«مقطع من قصيدة مهجورة»

مدخل

بعد رواية «هجرة السنونو» في العام 2008، وكنت في أوائل السبعينات من العمر قررت التوقف عن الكتابة الروائية. ما كان في أفق الذاكرة مشروع أدبي جديد.

اعتقدت أنني أنجزت مشروعي المتواضع في الأدب الروائي خلال نصف قرن من الدأب المتواصل والمرهق والصدامي مع العالم.

لعلني هجست داخلياً، أو قالت النفس: آن للمغني أن يصمت أخيراً. أو كما تقول العامّة: كسرنا الدّف وبطّلنا «الغِني».

في المشهد الآخر كان هناك رهط من الأدباء المنهمكين في الإنجاز الروائي الرتيب والمتواصل حتى نهاية العمر، كنوع من استمرارية الوجود والتوق الأجوف للشهرة والبريق واللهاث وراء سراب الجوائز، عبر حالة من الغثاثة والاجترار واللامعنى. في الطرف الأقصى من المحيط كنت في منأى عن هؤلاء العجزة الذين يحفرون في مناقع شيخوخة الذاكرة بعد نضوب الينابيع العذبة، والمشعة في أزمنة الإشراقات الأولى، الخلاّقة والمبهرة.

وكان أن جاءت الحرب فكانت ثالثةَ الأثافي. الحرب التي بدأت روايتها بالدم والجنون والوحشية.

بدت الحرب كصدمة عبر ربيع دموي أسود، خلخل الروح والعقل واطمئنان السراب البرّاق الذي كنّا نحيا في ظلاله الخادعة.

كشفت الحرب وسيرورتها، من شهوة الثورة إلى غريزة الوحش الديني ـ الطائفي عن الأعماق الدفينة لمجتمع يبدو أنه ما كان يوماً موحداً في انتمائه الوطني والقومي. الحرب التي عرّت لحاء الأشجار الخارجي وكشفت الجذور العفنة. أخرجت إلى السطح تحت الشمس كمون جراثيم الكراهية وديدان الأحقاد والرائحة البشعة للسمّ الطائفي المميت الذي كان ثاوياً في بلازما الدم. كان اللّه يتبرأ منكم وأنتم تقتلوه.

وقالت الحرب: أنتم لستم من سلالة محمد وعلي وعمر، بل أنتم من سلالة «البسوس» و«داحس والغبراء»، ستنقرضون بسمّ الكراهية الذي يتآكلكم من الداخل لأنكم من سلالة الأفاعي التي يقتلها سمّها خلال حربها الخاسرة مع أعدائها.

تحت ظلال قناعاتي بجوهر ما يجري من توحش ودمار، وتحت وطأة الزلزال الداخلي للروح والعقل، بدت لي الكتابة غُثاءً نافلاً مُرمى على شاطئ مهجور، كما تراءت لي على شاشة الذاكرة، أن سنوات الحفر عن التبشير بالتنوير خلال نصف

قرن، نوع من العبث واللاجدوى، بدت كمن يحفر في صحراء «النفوذ» عن نهر مفقود.

ولأنني كنت يائساً وبلا أدنى أمل هجست بإحراق كتبي ومكتبتي ويومياتي وجميع ما يمت إلى الثقافة بصلة. لقد هُزمت شمس التنوير وسادت الظلمة البربرية. في المشهد الآخر، قبل الحرب، كان المثقفون الديمقراطيون والتنويريون والأحزاب القومية واليسارية، يشيدون قصوراً ومدناً فاضلة على سطح القمر، قصور ومدن تدوي قاعاتها وجدرانها بالشعارات والهياج واقتراب ساعة الحسم في قيام المجتمع الفاضل والعدالة الاجتماعية والحرية.

في ذلك الوقت الضائع عبر سهوب وصحارى الكلمات المنذرة بقيام الساعة، كان اللّه ضائعاً ومحتاراً بين ضوضاء ملوك الطوائف، شبيه طفل دائرة الطباشير القوقازية لبرتولد بريخت تشدّه الأيدي مؤرجحاً بين الأم الوالدة التي هجرته والأم المربية، وكل منهما تدّعي ملكية الطفل.

على الأرض كان الدينيون والطائفيون، يؤولون ويثبّتون دعائم إلههم الطائفي والمذهبي داخل قلاع حصينة في الجوامع والجامعات والمؤتمرات والمحافل الدينية والجمعيات السرّية والعلنية، غارسين أشجار الحقد وكراهية الآخر، العدو الكافر والمارق.

كانوا يغذّون طفولة الإرهاب والقتل بحليب البغضاء تحت سمع وبصر الدولة ورعايتها الأمنية.

حين فاجأني خبر الواقعة التي سأرويها كما رواها لي فيما بعد يحيى بركات لم أصدق الرواية.

في البداية روت لي زوجتي الحدث، نقلاً عن صديقتها التي تَمُتّ بصلة قربى لأهل العسكري الذي أمضى قرابة العام ونصف العام متوارياً في بيت صديقه في الرقة.

في غمرة الحرب وأهوالها تُنسج حكايات ومبالغات يتناقلها الخيال الشعبي: عسكري ينجو من معركة قاتل فيها. يلجأ إلى بيت صديق له من طائفة أخرى فيؤويه على مدى عام وخمسة أشهر بعيداً عن عيون الإرهابيين الذين يطلبون دمه.

أمعقول هذا في خضمّ هذا الصراع الطائفي الدموي؟

هزّني الحدث وكاد يعصف بقناعاتي. هل ينفي الاستثناء قاعدة واقع الحرب الطائفية القذرة؟ أم أن القاعدة الحقيقية المؤسسة على الصخرة الوطنية هي الأساس والجوهر؟

من الداخل، على المستوى الأدبي، استيقظ صوت المغني الذي توهمت أن نايه انكسر فقال: ثمت نغمة لم تُعزف بعد.

الينبوع الأدبي الذي خيّل إلي أنه جفّ كان يختزن بقايا خيط رفيع من الماء تحت حصبائه.

على مدى شهرين ونحن نواصل الاتصال بالرجل المطلوب. أخيراً يئسنا.

كان الرجل متوجساً ومضطرباً ومربكاً تحت تأثير الصدمة. يخشى من نشر حكايته للصحافة، كما ظن للوهلة الأولى. وكما علمنا، فيما بعد أن بعض رؤسائه لم يصدقوا حكايته واتُهم بالفرار من المعركة وعليه العودة إلى الخدمة في الجيش تعويضاً عن مدة غيابه.

بأسف وضعت الحدث على رف النسيان لفترة من الزمن.

زوجتي وأصدقائي الذين رويت لهم الواقعة قالوا: لم لا تصوغ الرواية من نسيج مخيلتك؟

كانت الحرب في مجراها الرهيب أكبر وأقسى وأشد بربرية من أن تحيط بها حادثة أو واقعة فردية.

الإلحاح الداخلي بأهمية الحدث، وشعوري بضرورة كتابة عمل أدبي يدين ويرفض الحرب الطائفية، دفعني إلى بداية نسيج هيكل للعمل من مخيلتي ثبت بعد لقائنا مع المفقود، أن ما بدأته ليس دقيقاً وليس واقعياً لا في الحدث ولا في المدينة ولا في مكان ومجرى المعركة ولا البيت الذي توارى فيه.

اكتشفت أن مخيلتي أفقر وأجدب من الواقع.

ذات مساء وردني اتصال من مجهول: أنا يحيى بركات.

وأضاف كيفك يا أستاذ. هل نلتقي غداً؟

- سنكون سعداء بلقائك.

زوجتي وأنا فوجئنا. بدا الأمر غريباً ولا معقولاً، لكنه كان مفرحاً ويكاد يكون بعيداً عن التصديق.

- أهلاً بالميت - الحي قلت وأنا أعانقه.

ابتسم: هذا ما قاله لي الأهل حين عدت.

- تحتاج إلى عيد ميلاد جديد. قلت.

تاملته ونحن نجلس في باحة الدار. شاب أسمر في الأربعينات. وجه نضر، ممتلئ الجسد، حين يبتسم تقاطيع وجهه تشي بحزن مشوب بحياء ريفي خجول.

في البداية بدا مرتبكاً قليلاً وهو يشعل لفافة التبغ العربي من علبة صفيح.

- أنا لا علاقة لي بالصحافة. سأحاول كتابة عمل أدبي عن مجرى الواقعة التي جرت معك.

- عرفت ذلك فيما بعد. آخرون حدثوني عنك. هذا ما شجعني بعد معرفتي أنك أديب ولست صحافياً.

مع القهوة حدثنا عن فرحة اللقاء مع الأهل والأقارب والزوجة وابنه الوحيد، كما روى عن بعض الإشكالات

والإجراءات التي تمّت بعد وصوله إلى قطعته العسكرية، وحول الشكوك بفراره من المعركة، وبقائه متوارياً تلك المدة الطويلة.

على مدى الساعات الخمس التي استغرقت اللقاء كان يدخن بشبق تبغه البلدي.

بعد القهوة، وخلال الغداء مع كأس من العرق «الفلت» بدأ يسرد بهدوء مع بحّة صوتية. في حالات أخرى كان ينفعل حين احتدام القتال وضراوة المعركة. يروي وكأن الأحداث والوقائع التي جرت قبل عامين تجري الآن على شاشة ذاكرته. تتدفق كما السيل عبر الفجوات والصخور.

المعركة

بدأت المعركة بهجوم شنّه المسلحون على حواجز الجيش بأعداد كبيرة، وكان من الصعب على الحواجز الصمود أمام هذه الأعداد الهائلة والأسلحة المتنوعة مما اضطر هذه الحواجز للانسحاب والاحتماء بمفرزتنا.

طارد المسلحون وهم من (جبهة النصرة) عناصر الجيش المنسحبين نحونا. طوقوا المفرزة ليلاً. وبدؤوا ينادون بمكبرات الصوت طالبين منا الاستسلام، لكن القيادة رفضت.

في اليوم الأول كان الاشتباك مع جبهة النصرة. بعد استحالة تقدمهم انسحبوا وأخلوا مواقعهم للجيش الحر الذي أصبح في المقدمة مدعوماً بجبهة النصرة. هكذا أصبحت مجموعتنا مطوقة من جناحين. بعد يومين من المعركة قطعوا الماء والكهرباء، استُشهد منا ثمانية عناصر. كنا نسمع أصواتهم والاستغاثة مع التكبير وهم يحاولون سحب قتلاهم والجرحى.

في نهاية اليوم الخامس وبعد معارك مستمرة ليلاً نهاراً،

قاربت الذخيرة والمؤونة على النفاد. خلال هذا الوضع المربك تدخل ضابط من قوات الدفاع الوطني واتصل بشيخ عشيرة العفادلة محمد فيصل الهويدي، وهو عضو مجلس الشعب، وتم الاتفاق مع المسلحين على تبادل أسراهم لدينا مقابل خروج آمن لنا. الاتفاق تم مع «الجيش الحر» لنقل مجموعتنا وهي مؤلفة من حوالي ستين جندياً إلى قيادة الفرقة مع احتفاظ كل فرد بسلاحه. أنا كان معي مسدسي وجعبة ذخيرة.

احتفظنا بخمس رهائن لتأمين الخروج بسلام حين جيء بالحافلة لتنقلنا حسب الاتفاق.

بعد مسيرة حوالي مئة متر أقامت جبهة النصرة حاجزاً اعترض طريق الحافلة، متذرعين بإيصالنا إلى الفرقة بموجب الاتفاق. بعد أقل من كيلو متر غيّروا مسيرة الاتجاه المؤدي إلى مقر الفرقة. كان معهم موكب من السيارات وآلية حفر (تركس). طوقوا الموكب من الأمام والخلف، نزلوا من السيارات وهم مدججون بالسلاح.

في تلك اللحظة أحسسنا بالغدر والخيانة رغم ادعاء المسؤول عن نقلنا بأنه لن يُغدر بنا، وإنما سيأخذنا إلى أمير الجماعة ليرحب بنا ويستضيفنا على العشاء بعدها يتم إيصالنا إلى الفرقة. تظاهر قائد المفرزة بالموافقة ريثما يعودون إلى السيارات.

بعد مسيرة أمتار قال قائد مفرزتنا: اسمعوا يا شباب لقد

وقعنا في مصيدة. سنفتح النار عليهم واختراق الطلقة ليس أكثر من وخزه دبوس، نموت بشرف وكرامة وهذا أفضل من الاستسلام وتقطيعنا بالبلطات ورمينا للكلاب.

خلال حوالي عشر دقائق من مبادرتنا في الاشتباك المفاجئ وفتح النار من نوافذ الناقلة بما حملنا من ذخيرتنا، قتل من المسلحين من قُتل وفرّ آخرون. تمت المعركة عند مفرق «الجزرة» في الجهة الغربية من الرقة، استُشهد من مجموعتنا خمسة أو ستة أشخاص على ما أعتقد. هنا اختلطت الأمور ببعضها وأصبح الوضع عشوائياً: قسم من عناصر الجيش فرّ باتجاه المدينة والآخر باتجاه الفرقة. ومن تبقى من مسلحين بدؤوا بمطاردة رفاقنا.

بهدوء وهو يشعل لفافة التبغ البلدي واصل روايته المؤسية كأنه يعبر كابوساً: ما زال دوي الرصاص والأصوات في رأسي حتى الآن وربما يظل في أعماق نفسي حتى أموت.

أخيراً وجدت نفسي أنني الحي الوحيد في الحافلة، أعزل من السلاح سوى من مسدسي وجعبة فيها مخزن بندقية.

حركتُ جسدي وأنا في وضعية الاستلقاء لأكتشف أنني لم أصب. رفعت رأسي قليلاً. من النافذة لمحت اثنين من المسلحين يبعدان حوالى أربعين متراً يتبادلان الإيماء والحديث الخافت كأنهما يتآمران على سرقة الحافلة. زحفت على أرضية الحافلة

لأصل إلى الباب، تعثرت رجلي بشيء ما في الممر وإذا بها بندقية أحد الشباب. لم تكن مذخرة. لقّمت البندقية. كان المخزن فارغاً. تناولت من جعبتي مخزناً مليئاً ولقمت السلاح. ومن النافذة أطلقت النار على الأول فسقط. الآخر حاول الهرب. أطلقت عليه فهوى هو الآخر. نزلت من الحافلة وأنا أتلفّت في جميع الاتجاهات.

مدينة مهجورة سوى من دوي الرصاص والانفجارات وفي الهواء رائحة الموت. تلمست جسدي للتأكد من أنني ما زلت حياً. اقتربت من حائط محوّلة كهربائية. نزعت بزتي العسكرية. تحتها كنت أرتدي البيجاما الرياضية لتقيني البرد. ركنت سلاحي على جدار المحولة قرب البزة. ودّعت البندقية بقبلة أخيرة: الآن انتهت حرب الوطن والرصاص وبدأت حرب الجسد والنجاة...

ها أنذا أهيم في الشوارع والأزقة، محاولاً الاختباء في الوقت الذي كانت فيه المدينة تدوي بالرصاص والقنابل والبحث عن الناجين من الموت.

كنت أعرف بيت صديق من زمن ما قبل الحرب. اتجهت نحوه. البيت مهجور. هجست لا بد أنهم رحلوا. منهكاً وعطشاً والرأس يدوي بأصوات الرصاص والموت. ومع ذلك لا بد من

الاستتار والاختباء في مكان ما لأنجو. وحيداً أهيم في هذه المدينة لا أدري كم من الوقت مضى وأنا أسير لأقف أمام بناية مهجورة وغير مكتملة، سمعت أصواتاً تأتي من ورائي وضوء مصباح يدوي يسلط عليّ. بلمح البصر تواريت في ظلمة الزقاق، سمعت أحدهم يقول: أنا رأيته دخل البناية. التزمت الصمت قليلاً في زاويتي المظلمة والبعيدة قليلاً عنهم، رأيتهم يتسلقون السور للبحث عني. منهمكين في تفتيش البناية، تركتهم وغيّرت اتجاهي عبر شوارع أخرى أشد ظلمة ووحشة. وأنا أنعطف على رصيف الشارع التقيت بعامل نظافة يدفع أمامه عربة النفايات، اقتربت منه ومشيت هادئاً بجانبه. التبس الأمر عليه. شك بأمري وحاول الصراخ لكنني هددته بالمسدس كي يصمت. في نهاية الشارع انعطفت عنه وابتعدت.

الآن وبعد هدوء وصحو وزيغان ودوار في شوارع المدينة سطع في رأسي، كما في إلهام مباغت وذكرى تشبه نيزكاً أضاء المكان، موقع البيت الذي سأتوجه إليه بعد أن كان في غياهب الذاكرة ومُنسى في غمرة المعارك.

أمام السور العالي لبناية من ثلاثة طوابق وقفت شبه غائب عن الوعي. ضوء الشرفة الشرقية وحده يضيء المنزل.

ترى هل من حياة في هذا البيت؟ هل غادروا. أحياء هم أم أموات. ظلمة الليل ونجوم السماء تلمع وأنا مصلوب أمام السور

الحديدي. لا أدري بأية قوة شيطانية تسلقت السور. تقدمت نحو باب المنزل الخشبي. طرقة خفيفة على الباب وبسرعة انفتح. نبيل نصّار صديق الزمان القديم ما قبل الحرب.

- كنت أنتظرك. قال وهو يفتح ذراعيه. أنت حيّ. حمداً لله على سلامتك.

ماء. ماء.

كان بإمكاني أن أشرب نهر الفرات.

زمن العزلة

في ظهيرة اليوم التالي، وهما يشربان القهوة، سيروي لصديقه نبيل نصّار وقائع المعركة والهروب الليلي.

سيقول نبيل بأن أصداء المعركة ودوي الرصاص والقنابل كانت تُسمع جيداً، توقعت أنك تقاتل مع المفرزة التي أعرف موقعها كما أخبرتني. المهم الآن نجاتك يا صاحبي.

واستطرد باسماً: لا بد أنك كنت محروساً من ملائكة خفية غطّتك خلال الهروب، قل لي هل أنت من أسرة أسياد وشيوخ معصومين ونورانيين؟

ـ نحن من عامّة الشعب وفقرائه يا رجل. حياتنا عشناها تحت رحمة الأسياد والأغوات عبر التعب والشقاء في الأرض.

قال يحيى قاطعاً الحوار: اسمع! بعيداً عن الملائكة والشياطين والسادة والعبيد. أنا جثة عفنة وعليّ أن أزيل هذا العفن ولو بمياه باردة.

أشار نبيل إلى خزانة الثياب: هنا يوجد كل شيء. الغيارات الداخلية والمناشف والأغطية الصوفية وثياب النوم وكل ما

تحتاجه. هذه غرفتي ومعتزلي الخاص الذي تعرفه. هو الآن تحت تصرفك أيها المفقود التعس. سأراك في المساء بعد إزالة غبار جبهة الحرب لنحدد برنامج احتياط الأمن الخاص بك لأن مدة الإقامة قد تكون طويلة.

كان الاحتياط الأمني والحذر في مقدمة الأولويات الأساسية درءاً للخطر والمداهمات. ففي أرجاء المدينة التي تداعت تحت وطأة المسلحين والإرهابيين والتواطؤ الأمني لبعض المسؤولين. كان هؤلاء يطاردون الفارّين من عناصر الجيش ومغارز الأمن والشرطة والمشبوهين من موالي النظام. بدت المدينة تعيش كابوس الرعب والموت.

وبدا احتمال لجوء المطلوبين إلى بيوت الأهالي هرباً من القتل وارداً جداً. كانت عمليات التطهير والاعتقالات ورمي الجثث في الشوارع والأزقة وصلب العسكريين في الساحات والحدائق العامة والملعب البلدي وتقطيع الأوصال والرؤوس، تتم بوحشية لا مثيل لها.

وعبر المدينة كانت المكبرات تدوي في سماء المدينة التي استسلمت: كل من يؤوي رافضياً أو عسكرياً من جيش النظام مآله الموت هو وأسرته.

أول احتياطات الأمن: الهدوء المطلق في الغرفة وانعدام الحركة أو الضجة بحيث تبدو الشقة غير مسكونة.

الأمر الثاني: مفتاح الغرفة مع نبيل نصار أو أخيه سعيد في حال غياب الأخ، ولا يُفتح الباب من الخارج إلا من أحد الأخوين.

الأمر الثالث: الانتباه للأصوات في الداخل: التلفزيون - الراديو - الهاتف يفضل إغلاق الموبايل وعدم الاتصال بأحدٍ حتى مع الأهل.

في المراحل الأولى سيكون هناك إغلاق للنوافذ والرؤية من خصاص الأباجور، وتتم الإضاءة الليلية غالباً بالشاحن بدلاً من الكهرباء المقننة أصلاً.

- ها هنا إذن سجين مرفّه بلا فسحة تنفس خارجية. سيقول يحيى لصديقه نبيل بعد انتهاء دروس الاحتياط.

كانت الغرفة فسيحة، يؤدي بابها الرئيسي إلى الحَمام والمطبخ. في الجدار الغربي مكتبة نبيل العامرة بالكتب المنوعة من الأدب شعراً ورواية ومسرحاً ودراسات نقدية وسياسية مع منوّعات من التراث العربي والتاريخ. ستُغنى المكتبة فيما بعد بمزيد من الكتب المستعارة والمنقولة خلال الأحداث من المركز الثقافي حيث يعمل نبيل أمين مكتبة في المركز.

في الجهة الشرقية من الغرفة سرير وأريكتان وثلاث كراسي من القش، ووسط الغرفة مكتب للقراءة والكتابة مصنوع من شجر الحور الشهيرة به مدينة الرقة.

سيوضح نبيل لنزيله أن القسم الثاني من الشقة سينظف بشكل أسبوعي من قبل إحدى نساء البيت الجاهلات بوجوده، حيث تكون الغرفة مغلقة والحركة معدومة.

يدرك يحيى ضرورة هذا الاحتياط الأمني، على الأقل في الأيام والأسابيع والشهور الأولى، كي يُزاح الشك عن البيت غير الموالي للمسلحين، وربما كان مراقباً بشكل سرّي قبل أحداث الحرب وتسليم المدينة والاستيلاء عليها. كانت العلاقة الشخصية والسياسية بين يحيى وأسرة نصّار معروفة، وتحديداً من خلال حضور يحيى إلى المركز الثقافي والاستماع إلى الأمسيات الشعرية والمحاضرات الثقافية العامة، ومشاركته في إلقاء بعض قصائده المتواضعة في إحدى الأمسيات بتشجيع من نبيل.

على المستوى الخاص إضافة إلى الاحتراز الصارم والتقيد بالتعليمات الأمنية، كان على «السجين» تخطيط زمن عزلته اليومي في إيقاعات النوم والسهر والاستيقاظ، كذلك في القراءة والتدخين والمشاهدة الصامتة للتلفزيون وتحديداً في الساعات الأخيرة من الليل، وفي الأصباح بعد أن يستيقظ سيقوم بتنشيط جسده بحركات رياضية سويدية محدودة والسير عشرات المرّات عبر الغرفة، حفاظاً على حيويته وحركة جريان الدم في الخلايا.

خلال أوقات القراءة كان يسجل في دفتر خاص إيقاعات يومية حول أحاسيسه ومشاعره وكوابيسه في العزلة، وفي أوقات أخرى كان يحاول كتابة قصائد شعرية أو يسجل مقتطفات مما يقرأ.

أحياناً كان يأتيه نبيل أو أخوه سعيد بوجبة غداء من الطابق الثالث أو الرابع حيث يقيم الأخوان وأسرتهما.

في الأغلب كان يطهو لنفسه متحاشياً الروائح، يسلق البطاطا تارة والبيض تارة وأحياناً أخرى يتناول المعلبات.

منذ الأيام الأولى زوّد نبيل نصار مطبخ نزيله السرّي بمختلف أنواع المعلبات المتوافرة في المدينة، كذلك ما تيسر من الخضار القليلة والبيض والبطاطا والزيت والسمن ولم ينسَ التبغ والشموع.

وخلال تهريب وجبة غداء في عُلب بلاستيك كان نبيل يعقب ضاحكاً:

ـ علينا تسمينك جيداً لتكون الجائزة ثمينة ومجزية!

ـ في نهاية المطاف حياتي وموتي تساويا وتعادلا.

ـ اسمع يحيى! هذه أسرتك. نحيا معاً أو نموت معاً. وغير الله لا يعرف متى تنتهي مدة محكوميتك هنا. وأضاف مشجعاً: المهم يا عزيزي الصبر ثم الصبر مع العزم، حتى ينادي المنادي بالفرج وزوال الغمة. واستطرد متنهداً من أعماق صدره: فيما

مضى كنّا في رمضاء الفساد والقمع واللصوصية الإدارية والعامة والمحسوبيات والرشاوى. والآن نحن في الأدهى: نار هؤلاء الوحوش ـ القتلة. علينا أن نكبس الملح في الجرح ونقاوم ولو سلبياً.

بعد حوالي أسبوع دوهمت البناية من المسلحين الذين كانوا يفتشون الحي. لكن الجيران المجاورين للبناية قالوا بأن هذه الشقة خاوية.

يقول يحيى بأنه رآهم من العين السحرية لباب الشقة الرئيسي، وهيأ مسدسه للدفاع حتى الموت. بعد مغادرتهم هجس في نفسه تصوّر وهمي بأنه محمي بقوة سحرية أو إلهية غامضة. تذكر عبارة أمه وهو يغادر القرية إلى الخدمة العسكرية: اللهم احمك يا بني في غربتك من الظلّام وأولاد الحرام. أينما اتجهت وأينما حللت.

في أعقاب محاولة دهم البيت والتفتيش عن الفارّين عاش نبيل والأسرة حالة من الرعب والهلع. كان الموت قاب قوسين، لو اقتُحمت الشقة لكانت هناك مذبحة جماعية للنزيل والأسرة الحامية.

يحيى بركات سيروي بأن الحدث كان أقسى عليه من خوض معركته المسلحة التي نجا منها، ويضيف بين الشك واليقين: مرة أخرى أنجو والأسرة بعناية إلهية ونُغطى بأجنحة الملائكة السرّيين.

على مدى فترة الانقطاع عن دخول أحد إليه من العائلة ستغزوه حالة من الارتباك والشعور بالخزي. للحظات فكّر بالخروج بعد أن يترك رسالة اعتذار لصديقه.

لكن إلى أين؟ وكيف؟ ومن سيؤويه؟ وهل من منجى والمدينة تحت الاستنفار المسلح والبحث عمن تبقى من الجنود والمناوئين، إضافة إلى الإعدامات التي تتواصل في أرجاء المدينة أينما أوقفوا مشتبهاً لاجئاً أو فارّاً.

خلال أسبوع بعد الحادثة كانت الشقة في الصمت التام واللاحركة واللاضوء كأنها في حالة بيات أو موت، كان ينام بعين واحدة ويتقوّت بكسرات من الكعك والخبز الجاف ولم يشعل سوى شمعة في زاوية مظلمة من المطبخ.

حين سمع حركة المفتاح في قفل الباب الرئيسي رُدت روحه إليه. تعانق ونبيل كما في المرة الأولى حين وصل ناجياً من المعركة.

قال نبيل: اسمعني يا أخي إياك أن تتخاذل أو تيأس. أنا أعرف مشاعرك وأحاسيسك. معاً تقاسمنا الخبز والملح. نحن أخوان ورفيقان في المصير وهذه المحنة سنواجهها معاً، ولا بد أن تزول ككل المحن التي مرّت في تاريخنا. موجة عاتية وتنكسر كما موجات المغول والصليبيين وبيزنطة والعثمانيين والغرب المستعمر.

واصل نبيل: الآن نحن لسنا أفضل من الذين يُقتلون ويُقطّعون كل يوم. اسمع آخر الأخبار، بالأمس صلبوا النساء اللواتي رفضن الانصياع لشريعة جهاد النكاح. صلبوهن على مرأى الأهالي في مدخل حديقة الرشيد. كما بدؤوا بتحطيم وهدم الآثار والأضرحة والتماثيل كما فعلوا في الموصل. هدموا تمثال أسد شيران الأثري الذي يعود إلى العصر الآشوري قبل القرن السابع للميلاد على بوابة الحديقة العامة، هدموه بالجرافات وتُرك محطماً وسط المدينة ليكون عبرة

للأهالي. وقبل أسبوع وفي حي «المشلب» نبّهوا الأهالي عبر المآذن بضرورة فتح نوافذ بيوتهم المغلقة لأنهم سيقومون بتفجير الجزء المتبقي من مقام الصحابي أويس القرني. بعد ذلك لم يسلم مقام النبي إبراهيم الخليل في قرية عين العروس جنوب تل أبيض من الهدم.

وتابع نبيل: كما دمروا مقام الصحابي الجليل عمار بن ياسر، وهدموا تمثال الخليفة هارون الرشيد، وتمثال شاعرك المفضل البحتري. وكما فعلوا في الموصل أظنهم سيرتكبون مجزرة حرق الكتب في الملعب البلدي. وأضاف: أنا الآن بصدد نقل وإنقاذ المزيد من الكتب المهمة من المركز.هؤلاء هم المغول الجدد. أنت ترى وتسمع كيف يلوون عنق التاريخ نحو عصور الصراع التاريخية. يعيدون الزمن نحو إسلام مفترض اخترعوه عبر خلايا مجرثمة بسمّ الكراهية والقتل.

وليخرجا من مناخ الأخبار والتنظير قال يحيى: ما رأيك بفنجان قهوة مع سيكارة بعد أسبوع من الصوم.

وسأله نبيل عما فعل خلال الأيام التي تلت محاولة الدهم. فقال: كنت شبه ميت أنام بعين واحدة، حالة من البيات والصمت المطلق. هل تصدق أنني لم أشرب القهوة ولا دخنت ولا أكلت سوى قضمات كعك وكسرات خبز يابس مثل الفئران.

- وماذا كنت ستفعل لو اقتحموا الشقة؟

- سأقاتل بالمسدس حتى أقتل.

وأضاف يحيى: انتابتني حالة تأنيب تجاهكم. ولا أكتمك أنني فكرت بالخروج والهرب وأنا أعرف ماذا ينتظرني.

كانا يتحدثان في المطبخ أمام ركوة القهوة. قال نبيل مازحاً: لو خرجت لن تحميك الملائكة هذه المرة لأنك ستكون في قاع جهنم.

على الانترنت نشرت جبهة النصرة خبراً بأن أحد المطلوبين الخطرين من الجيش لقي مصرعه صباح هذا اليوم، ويعتقد أنه الرافضي يحيى بركات المعروف بأبو المهدي.

بعد نشر الخبر، ومن خلال العلاقة القديمة بين يحيى وأسرة نصّار، استُدعي نبيل نصار إلى مكتب أبو الحجّاج القاضي الشرعي للجماعة. قال القاضي وهو من أبناء المدينة: نحن نعرف مدى صداقتك بالرافضي أبو مهدي وفي الظن أنه صُفّي بالأمس من قبل الثوار. اذهب وتعرّف على الجثة. سنسمح لك من خلال ثقتنا بك، بدفن جثة صاحبك.

بعد التعرّف على جثة القتيل أفاد نبيل نصار بأن المقتول هو أبو مهدي المطلوب، إنما نحن على خصومة شديدة معه منذ عامين بسبب أحداث الحرب، والموقف المتعارض بيننا. تصرفوا بالجثة كما ترون ونحن أبرياء منه.

لقد أنكرتك وتبرأت منك كما أنكر بطرس الرسول بعد

العشاء الأخير معلمه يسوع المسيح قبل صياح الديك. صاح نبيل وهو يروي لصاحبه ما جرى: الآن تفرد لك الملائكة أجنحتها النورانية لتكون أكثر حرية مما مضى أيها الميت الحي.

- هي بشرى الحياة. هذه أجمل خيانة تحيي القلب الميت وتعيد لليائس الأمل.

- ستكون الاحتياطات الأمنية من الآن وصاعداً أخفّ وطأة عليك. لكن الحذر واجب مهما كان الأمر والمثل يقول: من مأمنه يأتي الحذر والخطر. احترس الأضواء والأصوات العالية فهناك أهل البناية والجيران والعابرون في الشارع. يمكن استخدام الشاحن بدل الشمع في أوقات القراءة أو الطعام في المطبخ. لا تفتح التلفزيون إلا في أواخر الليل اكتفِ بالراديو الصغير. كذلك انسَ جهازك الجوال إلى حين.

يعرف يحيى بركات ضرورة التقيد بهذه التعليمات. هاجسه الداخلي يسأل:

ما الذي تخبئه الأقدار رغم الإحساس الأوّلي بالأمان الراهن. كانت سفينته تبحر في بحرٍ هائج دونما بوصلة.

منذ الآن سينظم حياته بدقة متناهية حسب الخطة التي ارتسمت في التفاصيل.

في الأيام والأشهر الأولى كان النوم قلقاً رغم سهره حتى الرابعة صباحاً. السلوى الوحيدة حتى الآن كانت القراءة مع

شرب القهوة والشاي والتدخين المقنن (في المطبخ حتى لا تعبق الغرفة برائحة التبغ).

أحياناً يفتح راديو الترانس الصغير ليسمع الأخبار وبعض الأغاني والموسيقى بصوت خافت.

في الليالي كان يسمع دوي الرصاص والقنابل، ومن بعيد تأتيه أحياناً أصوات المدافع والصواريخ.

فيما بعد سيسجل في يومياته: تبدو الرقة عروس الفرات الجميلة كفتاة بهية تغتصب الآن تحت سطوة الغزاة البرابرة، ورجالها ممن لا يوالونهم يعدمون رمياً بالرصاص في الشوارع والساحات والحدائق وعلى شواطئ الفرات.

أطفالها يؤخذون إلى ساحات التدريب ليتعلموا الرمي والقتل تحت دويّ أصوات التكبير. نساؤها وفتياتها يُنتهكن تحت بدعة شريعة جهاد النكاح.

لقد قدموا من كل بقاع الأرض وليس في شرعتهم سوى القتل وتدمير الآثار التاريخية والأضرحة والتماثيل وكل مَعْلَم من معالم الحضارة تحت ذريعة أنها أوثان. ترى هل فعل الغزاة المغول والتتار ومن بعدهم الصليبيون والأتراك العثمانيون أكثر من ذلك؟

في لحظة انتباه فكر بقراءة كتب التاريخ لاستعادة الذاكرة القديمة. فالتاريخ هو ذاكرة الإنسان والبشرية. ولكي تعرف من أنت الآن لا بد أن تعرف من كنت فيما مضى.

هذا ما كان يشير إليه مدّرس التاريخ في المدرسة. وكان الأستاذ يستطرد بأن الكثير من مؤرخينا وبعض المستشرقين لا يُعتمد عليهم في البحث للوصول إلى الحقيقة.

ويشير المدّرس إلى الخلل في كتابة تاريخنا العربي جرّاء عوامل كثيرة منها:

انحياز المؤرخ خشية البطش والتنكيل في بلادنا المعادية للديمقراطية. كما يؤثر موقف المؤرخ السياسي والمذهبي والطائفي في بلاد تمزقها هذه النزعات التقسيمية، ثم هناك الرغبة في الكسب المادي بعيداً عن الأساس المعرفي.

وحين يسأله يحيى إن كان علينا الوثوق بكتابة تاريخنا العربي وبمدى صدقيته، يجيب الأستاذ ضاحكاً: بالقليل منه. كثيرٌ من هذا التاريخ منحاز وأحياناً ملفق خوفاً من السلطة سواء السياسية أو الدينية. تاريخنا تاريخ السلطة الحاكمة أكثر منه موضوعي.

ويضيف: أنا أرى في كتب بعض المؤرخين الأجانب حقائق موضوعية أكثر إقناعاً. ويسأل أحد الطلاب: لماذا كي نفهم تاريخنا نلجأ إلى قراءة الآخر؟

يقول الأستاذ: لأن الآخر أكثر حرية منّا في البحث وفي الحياة ومواجهة الحقيقة والسلطة بالمرصاد.

وفكر يحيى في لحظة وهو يتذكر هذا الحوار مع أستاذ التاريخ: من سيكتب تاريخ ما يحدث الآن في بلاد العرب؟ بأية

موضوعية ستسجل آثار الجائحة التدميرية التي تجتاح هذه البلاد؟ هل هي الثورة الآن للقضاء على وحشية الديكتاتوريات العسكرية المنحطة والغاصبة؟ هل هي الحرب الأهلية الطائفية؟ أم هي انفجار عاصف ضد البطالة والفقر والتهميش؟ وهل هذا الذي يجري مؤامرة دولية لتقسيم بلاد العرب (المقسمة سابقاً) لصالح إسرائيل؟ أم أن هذا الإعصار الدموي هو مجموع هذه التأويلات والاحتمالات؟

كان الآن مشوّشاً، مبعثراً عبر اتجاهات ومسالك لا تؤدي إلا إلى الضياع والتيه والضباب.

في لقائنا الأول اكتفى يحيى برواية أحداث الحرب والمعركة واللجوء إلى بيت صديقه. عبر الحوار أشار لمحاً إلى علاقة مع صديقة كانت ملاذه وسنده وعبق روحه في أوقات الشدّة والضيق قبل الحرب وبعدها، لكنه لم يستفض في التفاصيل كأنما خجل من اعتراض هذا الحدث الذاتي وتداخله مع مناخ المعركة والحرب.

فيما بعد وفي فضاءات حنينه داخل المعتزل، ستبرق على شاشة ذاكرته حكاية حبه والعلاقة المعقدة مع أسرتها بعد أن خرجت من السرّ إلى العلن.

تعارفهما الأولي كان داخل قاعة المركز الثقافي حيث يقام احتفال بذكرى الروائي الراحل الدكتور عبد السلام العجيلي أديب الرقة وطبيب فقرائها.

خلال الاستراحة قال نبيل نصار بعد أن أشعل سيجارته وهو يتجه نحو صديقه: يحيى تعال كي أعرفَك على صديقة عزيزة للعائلة.

وأردف وهو يضع كفه على كتفه وهما يتجهان نحو الفتاة: سحر تحب الشعر مثلك لكنها تنفر من العسكر. قالها نبيل مداعباً.

كانت الفتاة على مبعدة أمتار في الصالة تبحث عبر الزحام عن وجود نبيل.

صافح يحيى الفتاة بيد مرتعشة قليلاً وباضطراب بادٍ على وجهه.

قال نبيل: سحر خليل. تدرس اللغة العربية في كلية الآداب المُحدثة جديداً في الرقة. والتفت نحو سحر: يحيى بركات صديق العائلة عسكري غير منضبط في السلك يصادق المثقفين و(يقرض) الشعر أحياناً مقلداً محمود درويش.

عَلَت ضحكة مشتركة بين الثلاثة على كلمة (يقرض) التهكمية والتي تذكر بصوت المقص أو قرض الفئران.

- ما رأيكم لو نذهب إلى البوفيه. نأخذ قهوة أو عصيراً بعيداً عن هذا الزحام الضوضائي.

رغم مقتها الداخلي للعسكر، إلا أنها أحست بالراحة نحو هذا اللامنضبط المرتدي ثياباً مدنية. لكنها تساءلت في أعماقها حول غرابة التناقض بين جندي مهنته الحرب وبين حبه للأدب والشعر.

وباستحياء سألته: ما الذي أتى بك إلى السلك العسكري مادمت تهوى الأدب والشعر؟

وأجاب: الحالة المادية للأسرة. نحن فلاحون فقراء نعيش في مناطق جبلية وغابات وأحراج لا زراعة تكفي ولا دخل يقيت ويسدّ الرمق.

خلال الحوار بدت الفتاة في نظر يحيى عفوية، عذبة وجذابة. لم تكن ذات جمال خارق. وشعر بميل داخلي غريب نحو هذه الأنثى الهادئه في إيقاع حركاتها وابتسامتها المشعة وبروق عينيها وبساطة ثيابها.

كانت ترتدي سروالاً من الجينز مع بلوزة رمادية، وتلف حول عنقها منديلاً أزرق. لم يكن على وجهها القمحي أي أثر للمساحيق.

حين عرض عليها التدخين وهي تشرب العصير رفضت بتحفظ.

تناثر الحوار حول حياة الجامعة والدراسة والأسرة وحول الحياة الاجتماعية في الرقة التي تنوس بين التقاليد والنزوع إلى التقدم عبر ظاهرة الثقافة المتنورة والسياسة.

وسألته الفتاة عن مجرى حياته في المدينة، ومدى انسجامه مع الجو العام، وصداقاته مع الآخرين كعسكري يرون فيه منافحاً عن النظام.

ودخل نبيل عبرَ الحوار: نحن أصدقاؤه نجرده من

عسكريته ونراه مدنياً مثلنا. قيمة الإنسان كما تعرفين هو ما يحمل في داخله من أفكار ومفاهيم وقيم لا ما يلبس من الخارج.

قال يحيى: خيار الجندية كان تحت ضغط الحالة المادية درءاً للفقر والحاجة. بعد إنهاء المرحلة الثانوية ما كان بالإمكان متابعة الدراسة الجامعية. ولأن وقت الاستراحة انتهى نوّه نبيل: الحوار لا ينتهي. سنلتقي لاحقاً في بيتنا. الآن دعونا نعود إلى القاعة.

أشهر تتوالى والشعور بالحصر والانقباض النفسي. يتحول إلى كتلة صلبة تضغط على الصدر والروح كهذه الجدران الصماء المطوقة. الإيقاع الرتيب للأشياء والحركات والصدى الخافت لمحيط مغلق داخل قوقعة هذه الجدران التي تكاد تصرخ: لقد تعبت من الوقوف لماذا لا أُهدم وتنفتح فضاءات لا محدودة تسَع العالم.

كان الشوق إلى الحرية والخروج من حصار هذه الجدران يأخذ أحياناً شكلاً هذيانياً عبر تموجات الرغبة في التحوّل إلى طائر أو حيوان أو فراشة أو سمكة أو سحابة تعبر الفضاء، وفي الأغلب كانت تأتي أمواج التوق هذه عبر أحلام اليقظة أو رؤى النوم أو الكوابيس أو الذكريات.

وحدها ذكرى الطفولة والفتوة الأولى في القرية تفتح ملاذاً للروح المتعبة. تطلق الحرية لجناحي فتى كان مسحوراً بالبراري والغابات وصيد السمّان والحجل، مصحوباً بكلبه السلوقي العابر للقارات حين تسقط الطريدة مجنّحة بعيداً في أعماق الدغل.

كان فصل الشتاء موسم الصيد الوافر للسمان والشحارير والأرانب والحجل. وما كانت أحراج السنديان والبلوط والقطلب والزعرور بعيدة عن القرية.

أحياناً كان يصحبه أخوه الأصغر الهاوي للبراري والطيور، يحمل معه الزّوادة ومطرة الماء بينما ينوء هو بسترة الصيد والبندقية والجعبة التي تحوي قضبان الدبق. وكانت المهمة المركزية لأخيه هي الحماية والإشراف على مساحة الدبق المنشور على الشجر خشية السرقة من الصيادين المنتشرين في الغابة.

في ذلك المساء احتفلت الأسرة بالصيد الوافر. كان العشاء شبيهاً بوليمة ليلة العيد التي تتناول فيها العائلة اللحم.

بدا الصياد منتشياً وهو يرى الأسرة تتناول لحم الطيور التي اصطادها مع أخيه بعد يوم مجهد عبر الأحراج.

سنوات عديدة ستتذكر فيها العائلة ليلة الصيد والشواء النادرة، في الوقت الذي سيكون فيه يحيى يمضي خدمته العسكرية في أبعد نقطة من الكرة الأرضية وراء النهر الكبير، كما ستتصور أمه حين تعرف مكان ابنها. وتضيف وهي تذرف الدمع: ستعمى عيناي قبل أن أراه. هو في آخر الدنيا. لا حسّ ولا خبر ولا مرسال منذ شهرين.

أخوه العائد من المدرسة يكفكف دمع أمه: الآن صارت الرقة نهاية العالم يومًا؟ كيف لو كان على الحدود مع فلسطين.

ـ حتى تصل الرسالة لازم لها شهر أو أكثر. يضحك الفتى: ماشية على قدميها أو راكبة على حصان. لشو مستعجلة وهو بالكاد استلم البدلة العسكرية.

ـ اسكت يا ولد. بلا مسخرة وقلة ذوق. أنا قصدت تأخر البريد يا دكتور الصف العاشر.

ـ ماما نحن في عصر الهواتف والفاكسات والبرقيات السريعة، والقرية تبعد أقل من كيلو متر عن البلدة حيث مدرستنا الإعدادية.

ـ ليش حتى اليوم ما بعت لا برق ولا تحرير ولا مكس.

صححت الأخت: ماما فاكس. فاكس. يا أمي الغائب معذور. ظروف أخي وأحواله لا نعرف عنها شيئاً. ادعي له بالسلامة والصحة. في النهاية هو واحد من آلاف الجنود الذين يخدمون الوطن.

في اليوم الثالث من الحوار جاء بلال الأخ الأصغر راكضاً بلهفة نحو أمه:

ـ شو بتدفعيلي عربون بشارة؟

ـ اطلب ما تريد. المهم أن تحمل لي أخباراً عن يحيى.

من حقيبة المدرسة أخرج مظروفاً. لوّح به في وجه أمه: تفضلي يا أم يحيى، صرعتينا بالولولة والنحيب على ابنك وكأن الأمهات لم يلدن سواه. بدا الأخ فرحاً حتى الأقصى بالرسالة.

ـ يا حبيبي اقرأ لي الرسالة على مهل.

بدأ يقرأ الرسالة والأم تهمي الدموع.

حكى يحيى عن حياته المتعبة في الشهر الأول خلال التدريب، ومن ثم فرزه إلى أحد المكاتب الإدارية مع رفاق له بقيادة ضابط برتبة مقدم. وأشاد ضمناً بمناقب رئيسه والعلاقات الودّية بين الضابط والجنود، منوّهاً إلى أن هذا نادر في الجيش.

ـ لكنني بدعواتك يا أمي ورضاك كنت محظوظاً.

وتحدث عن جمال المدينة وقوّة وجلال نهر الفرات وحضوره الحيوي وجمال غابات شجر الغَرَب والحور المعانقة للنهر: إله الخصب والنمو والحياة لهذه البادية المترامية.

وبعد السؤال عن أحوال العائلة والقرية وأخبار الصيد موصياً أخاه بلال بالبندقية وكلبه عابر الأدغال، ختم الرسالة بالتحية والقبلات للوالدين والأخوة والأقارب طالباً من أمّه استمرار الدعوات له بالسلامة وحفظه من الظلّام وأولاد الحرام كما قالت يوم ودّعته على عتبة البيت.

سيتنكر سهرة رأس السنة في بيت أسرة نصّار. السهرة الغريبة المشحونة بحوارات حارّة بين السهارى من أصدقاء نبيل وأخيه سعيد وابن عمه وآخرين يعرف بعضاً منهم من أبناء المدينة.

كان ذلك قبل ثلاثة أشهر من انطلاق شرارة الأحداث الدامية التي انطلقت من درعا ومن ثم عمّت المظاهرات معظم البلاد.

ما كان أحد من الحاضرين يتنبأ بما حدث بغتة وعلى النحو الذي تلى ذلك.

في الداخل كانت البلاد متماسكة ظاهرياً، الأمن والقبضة الحديدية للمخابرات استطاعت في عديد من المناسبات دهم أوكار جماعات إسلامية وإلقاء القبض على أفراد أو مجموعات تحتاز أسلحة ومتفجرات. جرى ذلك في أعقاب تصريح مرشد الإخوان من فرنسا حيث تنبأ بأحداث دموية قريبة ستحدث في سوريا. ما كانت عيون الأمن ترصد الإسلاميين فقط، بل كانت تراقب وتعتقل اليساريين والديمقراطيين والقوميين المناوئين للسلطة.

وفي مجرى عمليات القمع قامت سلطات الأمن بإغلاق المنتديات الثقافية والأدبية كبؤر للمثقفين المناوئين في رأيها. في هذا السياق تم إغلاق منتدى الرشيد تحت ذريعة أنه موطن موبوء للدعاية الشيوعية المضادة للنظام.

حدث لغط واحتجاج ممن كانوا يرتادون المنتدى.

وخلال السهرة تساءل نبيل: إلى أين يسير البلد؟ ولماذا يُطارد الأمن الثقافة والتنوير في أنحاء البلاد؟

يردُ آخر: ليُعبّدوا الطريق للإسلاميين.

أحد الحضور وهو محامي صديق العائلة يقول: الأمن والمخابرات كما أرى يسيرون بالبلاد نحو الهاوية. الأمر والنهي تحت أيديهم وقبضة مسدساتهم. لم يبق بيت بلا مخبر يحرسه. يُضيّقون الخناق على العباد، يلهونك برغيف الخبز واللهاث وراء تفاصيل الحياة اليومية التافهة لتكون نائياً عما يجري. في حين تحولوا إلى حراس عيونهم مفتوحة لحماية كبار التجار والسماسرة والمتعهدين والرأسماليين.

سعيد نصّار قال: السهرة طويلة ومفتوحة، دعونا نشرب نخب المنتدى المرحوم.

وفيق بركات عم يحيى والأستاذ السابق في الرقة صديق نبيل نصار، والقادم من الساحل قال مازحاً: عقبال المراكز الثقافية كلها ولتعمَّ الأمية سائر البلاد.

يعقب المحامي: البلد الأمّي كالقطيع يُحكم ويُساق بسهولة.

- وبالعصا بدلاً من المسدس. هزئ نبيل.

في سياق السهرة سُئل الأستاذ وفيق عن أحوال الساحل وكيف يعيش الناس في ظل هذه الأحوال الصعبة؟

- بخير وسلامة تحت رعاية الأمن والشبيّحة. من حدود لبنان جنوباً إلى حدود كسب شمالاً على طول الشريط الساحلي. تمتد دولة من المجرمين والشبّيحة والقتَلة الخارجين عن أي قانون أو حساب سوى قانون المسدس أو الرشاش.

ستُروى أحداثاً ووقائع عن ارتكابات فظيعة من السرقات

إلى الاغتصاب والقتل والخطف وتهريب الأسلحة والمخدرات ومصادرة الأراضي والسيارات ولا من يحاسب أو يعاقب. وأضاف: نحن نعيش في دولة داخل دولة ولا عصابات المافيا في أمريكا اللاتينية!

عبرت غيمة اكتئاب أمام ناظري يحيى وهو يرى اللوحة السوداء لبلاد يحبها وتطوع في الجيش من أجل حمايتها وقت الشدة من الأعداء.

الصراحة والجهر بالوقائع المحزنة والمريرة في تلك السهرة بدت وكأنها مهاد وإرهاصٌ بالذي سيحدث بعد ثلاثة أشهر، ودخول البلاد في دوامة العنف والاقتتال الطائفي الدامي.

في المعتزل ستلوح ذكرى السهرة كإيقاع نبوئي أو اهتزاز رجراج لأرض رخوة ما كانت محصنة احتساباً للهزات أو الزلازل والكوارث. وفي سرّه هجس بمرارة: لكم أخطأنا. من يزرع الريح يحصد العاصفة.

ودندن: أيّها الجندي البيدق المُسمى يحيى بركات يبدو أنك لا شيء في حساب العالم.

بعد لقاء التعارف الأول في المركز الثقافي بدأت الاتصالات عن طريق الجوّال بعد تبادل الأرقام بين يحيى وسحر، تطورت إلى لقاءات في النادي الثقافي أو المركز إبان المؤتمرات أو مناسبات إلقاء الشعر أو قراءة القصص المحلية والعربية، وخلال المعارض الفنية.

في أكثر من لقاء في بيت نبيل نصار جرت حوارات حول الأدب والثقافة، وحول رؤية كل منهما للحياة والأسرة والمجتمع المحلي والتقاليد والحرية.

عبر أجواء الحوارات أحسّ يحيى بالتقارب بين أفكارهما العامة، سوى أن سحر لم تكن بعيدة عن الجو السياسي السائد في المدينة. عزت ذلك إلى حدّة التناحر والانقسامات والعداوة الشديدة ليس بين اليسار والإسلاميين إنما حتى بين اليسار ذاته المنقسم من خلال الاتهامات بالانحياز إلى النظام أو معاداته لاستبداديته وقمعه. وتحدثت عن المظاهر الحادّة لهذا الانقسام في الجامعة.

وحين سألها عن وضعها في الأسرة وحريتها الفردية داخل البيت وخارجه، شرحت بأن الوضع الجامعي يتيح لها بعض الحرية: والِداي يثقان بي من خلال التربية المتوازنة. أخي الأكبر يساري اعتُقل وسجن لمدة عامين، يعمل في مديرية الصحة وهو سندي في مواجهة الوالد الميّال إلى السلفيين، والمُتزمت في مسألة الحرية الفردية للمرأة.

- المجتمع العربي فسيفساء ملوّنة وغير متجانس في العادات والقيم الفردية والاجتماعية. مجتمع انتقالي يتعثر بين الطفولة والرشد يضع قدماً في الماضي وأخرى في الحاضر.

وتابع يحيى: نحن مأسورون في سجن الماضي ولم نخرج منه بعد سوى في إطار حفنة من المتنورين المهمّشين.

- في الجامعة تدور نقاشات بغيضة حول الدين والطائفية تصل أحياناً إلى درجة الصدام عبر اتهامات وعداوات وتكفير كل طرف للأخر. قالت.

- في العالم المتحضر وصلوا إلى أقصى التطور سواء في الصعود إلى القمر واستكشاف المريخ والاستنساخ والمعلوماتية المذهلة والتكنولوجيا الدقيقة الخارقة، ونحن ما زلنا في مؤخرة التاريخ نسأل: من أحق بالخلافة معاوية أم علي؟ اعتقد أننا نعيش حالة انقسام ذاتي.

وعقّبت الفتاة: هي حالة دائرية تشبه على ما يبدو

الخذروف الذي يدور حول ذاته. ثمة غياب شبه تام للمعرفة العلمية والتنوير حتى في الجامعة مركز العلم.

وخلال الحوار تحدث يحيى عن التخلف المستشري في الريف الساحلي، وهيمنة الشيوخ ورجال الدين والنذور والزكوات والذبائح القربانية في أوقات المرض والعجز والعودة السالمة من السفر.

وقالت الفتاة بأن هذه الظواهر السلبية والمتخلفة ليست حصراً على ريف الساحل: في أرياف الداخل جميعها ما هو أدهى وأسوأ. التخلف عام وشامل والمثقفون أو الأحزاب التقدمية على ما يبدو. لم تفعل أكثر من دوي الأصوات في المؤتمرات والمناسبات الاحتفالية.

اللقاءات الأخرى كانت تجري أحياناً على ضفاف النهر عبر أوقات مسروقة من العيون، وعبرها.

ذات ظهيرة التَقَيا قرب ضفاف النهر تحت أيكة من شجر الصفصاف النائية عن العيون. كان الطقس ربيعياً والجو يموج بروائح الطبيعة، أسراب الدرغل تعبر النهر نحو أدغال شجر الغَرَب قادمة من مراعيها لتستظل في الحويجة المقابلة للنهر. راقبا طائر الغطاس بريشه الجميل الأبيض والأسود واقفاً على غصن شجرة قريبة يلوب محدقاً في الماء بحثاً عن سمكة سينقض عليها.

قالت سحر: يا له من طائر غريب أترى كيف يحدّق في الماء؟

- نكّرني في الريف عندنا بطائر نسميه القرقف، يبقى وقتاً طويلاً على أعلى غصن يراقب الأرض ليصيد جرادة صغيرة.

من الترمس صبّ فنجانين وهو يناولها الشاي تماست الأصابع عَرَضاً. حدثت رعشة سرّية نمت في الأعصاب، وحين همت، كما قطرة مطر مفاجئة ومحتبسة في سماء ربيع بلا غيوم، كلمة «حب». لاحت كحالة سهو أو انفجار ضاغط. حين خرجت من أعماق يحيى وارتعشت على شفتيه، بدت كمن يرمي حجراً في أعماق بئر لقياس عمقه.

اختلجت الفتاة برعشة داخلية، بدت ملامح من آثارها على وجهها، وفي بريق عينيها العسليتين. صدمتها المفاجأة التي سَرت في ذرات جسدها فشتتها.

تتالي اللقاءات الماضية كان ينذر بأن شيئاً خاصاً يتنامى بينهما، لكنها لم تكن تتصور حدوث ذلك بهذه السرعة المفاجئة.

وهي تنظر إلى الأرض المعشبة على الضفة شعرت بما يشبه الدوار، والغوص في أعماق الماء كأنما تبحث عن جذر أو صخرة تنقذها من الغرق.

- هل أسأت إليك؟ قال ذلك ليخرجها من الصمت الرجراج.

ـ لا. أبداً. كل ما في الأمر أنني أرى الوقت ما زال باكراً لنمو الحب وعلي أن أراجع نفسي بهدوء.

ـ كيف؟ سألها وهو خائف أيضاً.

ـ أنت صديقي منذ وقت غير طويل، والآن ترى أن علينا العبور إلى الضفة الأخرى. هذا الانتقال مصيري وخطر، وأنا لا أعرف إن كنت أصلح لهذا العبور أو قادرة عليه. امنحني وقتاً الآن.

دهمه إحساس داخلي بالندم. شعور بأنه كان على عجلة من الأمر. حين حاول الاعتذار اعترضت: أنت لم ترتكب إساءة لتعتذر. أنا وأنت شخصان ناضجان والزمن وحده سيقرر المصير.

وحين سأل إن كانا سيلتقيان بعد اليوم، قالت: سنتهاتف وحين نرى اللقاء مناسباً نلتقي. الآن دعنا نفترق. أنا مضطربة قليلاً. وأود العودة إلى البيت.

ـ لستِ غاضبة مني؟

ـ لا تكن طفولياً. انسَ ما حدث. أنت ما تزال صديقي وستبقى.

على مدى أجيال ستُروى أيام الرعب السوداء المخيفة التي خيّمت على المدينة في أعقاب سقوطها واستسلام الفرقة العسكرية بعد مقاومة شرسة أمام الهجوم الكاسح العدد للقوات المعادية.

ستروى شفوياً من الأجداد إلى الأحفاد وأحفاد أحفادهم، وستدوّن في الكتب وتترسخ في أعماق الذاكرة المظاهرُ والوقائع البربرية التي تُذكّر عبر التاريخ بالاجتياح المغولي القديم.

عبر تكبيرات: لا إله إلا الله، الداوية في أحياء المدينة اقتحمت المجموعات المسلحة بيوت المسيحيين المذعورين وكنائسهم. كسروا الأبواب المغلقة. دخلوا الحجرات والمخادع وصعدوا إلى الطوابق العليا بحثاً عن الذهب والأموال المخبأة. كما هاجمت فصائل من هذه القطعان المسعورة دور العبادة. حطموا الأيقونات وتحت أقدامهم هشّموا صور القديسين والصليب والعذراء وابنها يسوع. ونادوا بالمكبرات: يا أهل الذمة بعد اليوم لا مكان لذمّي أو صابئي أو يهودي أو رافضي

في ديار الإسلام. وقبل أن يخرجوا أضرموا النار في كنيسة سيدة البشارة والشهداء.

ونادى مُنادٍ من شيوخ دعوتهم: أرض الإسلام للمسلمين، خالصة من الشرك والنجاسة مُطهّرة من دنس الكفار والمارقين الملعونين في الدنيا والدين.

جمعوا الأهالي في الأحياء وطلبوا منهم تحت التهديد بالسلاح تسليم المصاغ الذهبي والنقود، وهدّدوا من يوجد لديه نقود أو ذهب مُخبّأ بالإعدام رمياً بالرصاص.

وأفتى مفتي داعش فيما بعد (وهو الخطيب المهاجر غير السوري) عبر خطبة الجمعة بجامع أسامة بن زيد في حي الثكنة أن حرق الكنائس جاء استناداً إلى فتوى شرعية مأخوذة عن عبد الله بن عباس مفادها أن المدن التي فتحت عنوة تحرق كنائسها وتهدم صلبانها. أما المدن التي فتحت صلحاً ودفع أهلها الجزية فالمسلمون لا يؤذون الكنائس والمعابد فيها، ويلتزم غير المسلمين بالعهدة العمرية ويمارسون شعائرهم بشكل سري. وبما أن الرقة فتحت عنوة فلا أمان للمسيحيين فيها.

وعبر الأيام والشهور التي تلت السيطرة الكاملة على المدينة بدأ تغيير المظاهر السابقة ذات الطابع المدني إلى مظاهر ومعالم إسلامية. أطلقوا على المدينة اسم: ولاية الرقة الإسلامية. واعتبرت الولاية الإدارية الأولى في دولة الخلافة.

فرضوا النقاب الأسود (الجلباب) على كل النساء من الرأس حتى الكاحل. كما حرّموا على الشباب ارتداء الجينز كونه صناعة أمريكية كما ادّعوا.

عبر أرجاء المدينة اقتحموا الحوانيت والمطاعم ومحلات السوبرماركت والمخازن وتمت مصادرة جميع أنواع المشروبات الكحولية والغازية وتم إتلافها وحرقها.

وبمكبرات الصوت نودي في الشوارع أن بيع واحتساء جميع أنواع الخمور محرّم شرعاً، ومن يضبط مخموراً أو يبيع مشروباً مُسكراً يجلد مئة وخمسين جلدة حسب الشريعة الإسلامية.

وفي المدارس والجامعة قاموا بتغيير المناهج الدراسية ومنعوا تدريس كتاب التربية القومية الذي يشيد بالنظام السابق، كما أوقفوا تدريس مادتي التاريخ والفلسفة في الجامعة. وبعد الاستيلاء على المصارف والبنوك وآبار النفط بدأ التعامل بالليرة التركية إضافة إلى الليرة السورية، كما صكّوا نقوداً معدنية كالدينار الإسلامي، وعليه نُقشت عبارة رايتهم: لا إله إلا الله محمد رسول الله.

وفي إطار التجنيد اعتُبر الأطفال من سن الثامنة حتى الثانية عشرة «أشبال الخلافة» في جيش الدولة الجديدة يُلقنون إيديولوجياً فكر وتعاليم الجماعة، كما يُدربون عسكرياً على الرمي والقتل تحت دوي التكبير والهتاف: لا إله إلا الله. الموت لأعداء الله والإسلام.

وفي هذا السياق ستُلغى منظمات الطلائع والشبيبة واتحاد الطلاب وبقية الاتحادات الاجتماعية التي شكلها النظام السابق. كما منعوا أي نوع من الاجتماعات أو الاحتفالات الرسمية السابقة. وأي اجتماع أو مؤتمر يحدد بأوامر القيادة في تنظيم الدولة.

وليتموا مآثرهم الملحمية جمعوا الكتب السياسية والفكرية والتراثية والتاريخية والمخطوطات القديمة، ما قبل الإسلام وما بعده، إضافة إلى الكتب الثقافية والأدبية رواية وشعراً ودراسات وفلسفة، نقلوها في أكياس من الخيش وركموها في الملعب البلدي حيث احتفلوا بحرقها أمام الأهالي المذهولين، وسموها: محرقة الكفر والإلحاد والفساد. قاموا بالعمل أسوة بما فعله دواعش الموصل في العراق.

وقال بعض من شاهد تلك المحرقة: إن هذا العمل يعيد الذكرى البربرية القديمة للمغول الذين قذفوا آلاف الكتب في نهر دجلة حتى صار الماء بلون الغرين والدم.

في المرآة رأى شكلاً آخر لوجهه. اللحية السوداء التي استطالت وعبرها شعيرات بيضاء، وهذا النحول في وجه يميل نحو الاصفرار. عينان كابيتان جرّاء النوم القلق وهجوم الكوابيس الليلية المرعبة، ثم هذه الظلمة التي لا تُضاء سوى بالشموع والفانوس الشاحن.

بدت الأشهر التي مضت وكأنها دهر، وأنه لن يغادر هذا السجن إلا إلى القبر. قال لصورته: ها أنت تتدهور أيها الرجل البائس وتتحول إلى مومياء.

صوت المفتاح في القفل سارع دقات قلبه حتى كاد يغادره، هبّت على روحه، رياح العالم الفسيح المفتوح للبشر جميعاً إلّاه. البشر الذين يستمتعون الآن وغداً بالشمس والفضاء والهواء النقي ورائحة الأرض بعد المطر والأعشاب، وعبق أزهار الضفاف وسموق شجر الغَرَب والحور. وعبرت خطفاً كالبرق ذكرى اللقاء مع سحر وتساءل أين هي الآن وهل تعرف أنه حي أم ميت، كان هذا فيما مضى في زمن قديم عميق الغور على ما بدا له.

سلام نبيل أخرجه من تداعياته وأعاده إلى وعيه، نبيل بصوته العالي وهو يضع الأكياس على أرض المطبخ: مطبخ الفقير يبقى نظيفاً يا يحيى. ما رأيك لو نقضي اليوم على البطاطا المسلوقة والمعلبات ونظافة هذا المطبخ التعيس.

شحوب الوجه والكآبة في العينين الحزينتين لفتا انتباه صديقه: ما بالك يا رجل وأما بنعمة ربك فحدث، أنت في الأمان ولو كان سجناً ما دامت زوادة التبغ تصلك كل أسبوع. ضحكا معا وتعانقا.

- ما رأيك لو نُحوّل هذا اليوم إلى يوم الطبخ العالمي، نطبخ ونتناول الطعام سوية. اطلب ما تشتهي فكل طيبات العالم تُختصر في هذا الفَرّوج الفقير المنتوف، قال نبيل وهو يخرج الذبيحة.

ذاكرة يحيى تعود إلى يخنه الفَرّوج والبطاطا والبندورة والبصل في قِدر من الفخار الأسود وهو يتربع على عرش موقد الحطب في بيت الضيعة. طبخة أم يحيى، أطلقا الإسم على الطبخة قبل أن تبدأ.

بدأت ورشة الطبخ كسراً لروتين الزمن الماضي. كانا معاً كأنهما أخوان يشتركان في الإعداد للمائدة. وفي انخطافة عبرت رأسه نسي حالته الاعتزالية والمضض الروحي الخانق.

وكما لم يأكل منذ شهور أكل بنهم مع صديقه وهما يشربان العصير ويتحدثان عن أحوال البلد.

بعد الغداء راح يحيى يُعدّ الشاي بينما انهمك نبيل بغسل الصحون.

في داخله فكر نبيل، بعد أن رأى حالة صاحبه الصحية، بكسر الإجراءات الاحترازية الشديدة، بعد أن خفَت المداهمات والبحث عن المطلوبين والناجين من المعركة نسبياً. وهما يتناولان الشاي أشار نبيل: عزيزي، أعرف صعوبة ما تعانيه وضغط العزلة التي تقتل الروح. الآن بإمكاننا التخفيف تدريجياً من الإجراءات الأولى حول مشاهدة التلفزيون واستعمال الموبايل والأضواء، إنما أُفضّل بقاء الستائر مسدلة.

خلال الحوار سأله يحيى عن أخبار سحر وهل سألت عنه.

ضحك نبيل: أنكرتُكَ للمرة الثانية. اتصلتْ وسألتْ، قلت ألم تقرئي خبر موته. اسمع عزيزي يحيى لا وقت للحب الآن، هذا وقت نجاتك ونجاتنا من قبضة هؤلاء الوحوش. وأضاف: المدينة مفجوعة وجريحة، ترتدي حدادها وهي تدفن قتلاها وتواسي جرحاها. الناس يعيشون تحت مظلة الرعب والذّهم وهاجس الموت ومحاولات الهرب بشكل يومي خارج هذا الجحيم.

وشرح له التحولات التي جرت في بنية المؤسسات، وتوقف مكتئباً ومغبوناً وهو يروي واقعة محرقة الكتب، وما جرى للأحياء المسيحية والأهالي وبينهم أصدقاء ليحيى وأسرة بيت نصار.

- لقد رفضوا الدخول في الإسلام وفضلوا الهجرة تاركين منازلهم وممتلكاتهم وذكرياتهم لينجوا من المذلة والموت.

الغصّة في حلق يحيى تحولت إلى بريق دمع في عينيه الكابيتين. وليرفع من معنويات صديقه قال نبيل: علينا أن نتماسك في المِحن. الوقت وقت الصبر. أنت واجهتهم بالسلاح والآن ستواجههم بالإرادة والقدرة في البقاء على قيد الحياة، هكذا نقهرهم. أتذكر أرنست همنغواي الروائي العظيم في روايته «لمن تقرع الأجراس» قد نهزَم ولكن لن ننكسر.

تشعّب الحوار وسأله نبيل ماذا يقرأ الآن فقال يحيى: طبائع الاستبداد للكواكبي. في اعتقادي هو كتاب يصلح لجميع العصور. أسجل في يومياتي مقتطفات منه. بالمناسبة حسناً فعلت حين هرّبت بعض الكتب ونجّيتها من المحرقة.

- يبدو لي أن الاستبداد علّة رئيسية في تاريخنا العربي على مرّ العصور. أتذكر ما قاله الشاعر:

«والظلمُ من شِيَمِ النفوس فإن تجدْ

ذا عفّةٍ فلعلة لا يظلمُ».

- بعد أن قرأت بعض الكتب حول التاريخ العربي في حقبتي الدولة الأموية والعباسية والحركات الخارجة على السلطة كالخوارج والقرامطة والزنج رسخ في ذهني أن هذا التاريخ لا يدعو إلى الفخر والاعتزاز كما درّسونا في المدرسة.

وقال نبيل: الحقيقة التي لا تقولها الكتب المدرسية والرسمية أنه تاريخ القتل والتآمر والوثوب إلى السلطة ولو على الأشلاء.

وأضاف: ربما كان هناك في اللاوعي الجمعي أساس راسخ لهيولى القبيلة الجاهلية المؤصلة على العصبية القبلية أكثر منها على الدين وهذا التأصيل يذكرنا بحروب الردة في خلافة أبو بكر بعد موت محمد، والارتداد عن الإسلام والعودة إلى القبيلة.

وسأل يحيى نبيل: أنت كأستاذ تاريخ سابق ما رأيك بالذي يحدث الآن هل هو استمرار أم نتيجة؟ أم هو مخاض توالي دولة الاستبداد كما يرى الكواكبي؟

ـ تاريخنا مجبول بعصارة من الماضي الاستبدادي، إنما الخطير فيه أنه عصارة فكر إسلامي غير عقلاني مغلق ومشوّه للإسلام. أعني أنه فكر ماضوي ينفي الآخر ويحاول استئصاله.

وتحدث نبيل نصار عن فكر الإمام السلفي ابن تيمية الضيّق والمتعصب، كما ألمح إلى فكر ابن تيمية كدليل لهذه الجماعات الإرهابية ذات الجذور الوهابية، وقال بأن هذا الفكر المغلق هو النقيض لفكر ابن رشد المفتوح على الحرية والعقل.

وسأل يحيى إن كان التاريخ والتراث مترابطين بمعنى من المعاني!

ـ أستاذنا في الجامعة كان يقول لنا: وسّعوا آفاق مداركّكم التاريخية بقراءة التراث من مصادر مختلفة لأن التاريخ والتراث متواشجان وكلاهما يتمم الآخر.

ويضيف بأن الجامعة لا تخرّج سوى الموظفين في نهاية الأمر. أنا أخذت بهذه الوصية وهكذا ترى التنوع المعرفي في المكتبة من الأدب إلى السياسة والتاريخ والتراث والفلسفة والدراسات.

فقال يحيى منشرحاً: العمر يمضي والمعرفة لا تنتهي. لعل واحداً من أسباب صمودي وبقائي حياً هو هذه الكتب: غذاء روحي ونافذتي على الإنسان والعالم.

وأشار نبيل: أنت بلا علم ومعرفة لا تختلف عن الأعمى. انظر ما حلّ بنا في هذه الحرب الطائفية القذرة جرّاء الجهالة وعمى البصر والبصيرة.

وتشعب الحوار حول مجريات الحرب، والأخطاء المتراكمة في السلطة وغياب الحرية وتهميش الثقافة التنويرية والفساد، ووضع الآخر المختلف تحت مجهر الشك والمراقبة والاستئصال الأمني. وقال نبيل: حتى في الحزب كنا تحت الرقابة الأمنية. أمعقول هذا؟

وجهر نبيل ببعض الوقائع الخفية: أنت تذكر قبل الأحداث المجموعات التي كانت تذهب إلى العراق سرّاً أو جهاراً وتعود

ومعها الأموال والأفكار الإرهابية المعادية للدولة، هذه المجموعات شكلت الخلايا النائمة التي ظهرت فيما بعد في المدينة ومعها السلاح.

- هذا كله يحدث تحت سمع وبصر مسؤولين أمنيين كانوا شركاء ومرتشين ومتواطئين، هذا ما اتضح فيما بعد.

وأضاف نبيل بنبرة قهر وغضب: النخر في عظام المدينة كان من الخارج والداخل لذا سقطت بهذه السرعة رغم مقاومتكم المتواضعة.

بعد أسبوع هتفت سحر، بدا صوتها هادئاً مموّجاً بنبرة مرح. كان الهاتف مباغتاً ليحيى وهو يجيب مرتبك الصوت.

قال صوتها مازحاً: كيفك. هل ما زلت حياً، وفي داخلك تنشد مع امرئ القيس:

أجارتنا إنّا غريبان هاهنا   وكل غريب للغريب نسيبُ

وأجاب ضاحكاً: هل ما زلنا غرباء؟

- لم تكن غريباً في أي يوم.

وسأل: إن كان بالإمكان أن نلتقي قريباً؟

- سأخبر نبيل عن إمكانية اللقاء في مكتبه في المركز.

بعد ظهيرة اليوم التالي كان اللقاء مرتبكاً ومغبطاً في آن. وهو يصافحها بمودة قال نبيل مازحاً: أيّها الفلاح المتخلف، في بلادكم ألا يعرفون عناق الأصدقاء.

عَلَتْ وجه صاحبه بوادر خجل واضطراب مع أمارات الفرح.

- ما زلنا في أول الطريق إلى الجنة يا صديقي.

- بل لماذا لا تقول إنك في بداية الطريق إلى القرن السادس عشر.

واستطرد: لدي اجتماع مع مدير المركز. سأطلب لكما الشاي ريثما أعود. افتُتح الحديث بينهما من حيث انتهى على ضفة النهر. وأَوضحت سحر بأن جرأة البوح في بلادنا تبدأ عادة من الرجل جرّاء التربية الشرقية والبيئة والميراث الذكوري المهيمن.

وتابعت: خلال أسبوع افتراقنا فكّرت بالأمر، وقلّبت الموضوع في رأسي على وجوهه الإيجابية والسلبية.

وسألها عن رجحان الكفة، فقالت باسمة: رجح الإيجابي أكثر في الميزان.

جاء النادل بالشاي.

قال: إذا احتجتما شيئاً أنا في الخدمة.

شكره يحيى. وبعد أن أشعل سيجارة سألها عن السلبيات التي نحّتها جانباً.

أوضحت بأن الوضع العسكري مربك. أنت لست مستقراً في

مكان. تشبه طائراً مهاجراً جناحاك مُقيّدان بيد الصياد. أنت هنا الآن وغداً في مكان آخر.

- ولكن أينما حللت ستكونين معي.

- هذا في حالة الزواج. نحن الآن في بداية مشروع حالة حب لنقل ذلك بوضوح. غداً أو بعد غد تأتيك الأوامر بالرحيل نحو مكان آخر. ما هو وضعي في هذه الحالة وأنا لست زوجتك بعد؟

- لم لا نفكر بالزواج قريباً؟

بعد أن احتست جرعة شاي ابتسمت: لأنك رجل بعيد عن أهلك، وحرّ في اختيار مستقبلك ربما، تقول ذلك. أما أنا فمقيدة ببعض السلاسل كأنثى، وفي المقدمة سلسلة الأسرة والأهل. قد أكون حرّة في الحب وسرّيته لكن الزواج أمر مختلف ومعقّد.

- لكنك أنثى ناضجة وجامعية وحرّيتك مقدسة.

ضحكت وهي ترفع كفها معترضة: أنا لست خريجة السوربون، كما لسنا في باريس يا عزيزي. هذه البلاد اسمها الرقة الواقعة في بادية الشام، وهي تحبو كالطفل متعثرة على أول درجة من درجات التقدم والحرية.

- وأسرتك هل تقف عثرة في طريقك. سأل.

افترّت بابتسامة هي أقرب إلى السخرية. وقالت بأن الأسرة مؤلفة من أجنحة سياسية ومعتقدات متباينة. فالأب سلفي متزمت، والأخ شيوعي من خريجي سجون النظام. والأم تنوس بين الصفا والمروة وهي تقرأ البيان الشيوعي.

ابتسم وهو يطفئ سيجارته الرابعة في المنفضة: هذا يعني أنني منبوذ دينياً وسياسياً من الطرفين.

- أنا وأنت خاسران قبل بداية الرحلة.

حين دخل نبيل هتف ضاحكاً وهو يرفع يديه: هيه. هل نأتي بالمأذون؟

وقال يحيى: الجنة معبّدة بالأشواك يا صديقي.

عقّبَ نبيل: أنا أعرف التلال والدروب الصخرية الوعرة. إنما هناك أمر سرّي سأحيطك علماً به: أم عدنان، زوجتي، ترى في سحر صنواً لابنتها منذ الصغر. وبحكم الجوار والقربى البعيدة تحوّلنا إلى ما يشبه العائلة الواحدة. إنما أنا وأخي سعيد على طرفي نقيض مع والد سحر ومع أخيها. خضنا جدالات حادّة وبقي كل منّا يراوح مكانه لكن بلا عداوة.

أشعل سيجارة وطلب شاياً للجميع.

تابع: ما أردت الوصول إليه من هذه المقدمة أن أم عدنان هي أمينة سر سحر وعرّابتها أكثر من أمها. فيا يحيى بركات

إذا ما رغبت يوماً الحج إلى مكة آل خليل تذكر أن نبع الكوثر يعبر في ديار أم عدنان.

الجو المرح والشفاف بصراحة نبيل نصار وروحه السمحة وتورياته الشعرية، تحوّل إلى احتفال مبهج لعاشقين مازالا يحبوان على الدروب الصعبة باتجاه مصير مجهول المعالم.

بعناق خَجِل وحميم في آن افترق العاشقان.

قال نبيل نصار ممازحاً: يبدو أنك تتقدم حضارياً نوعاً ما.

بعد تخفيف الإجراءات الأمنية بدأ يُشغَل بصوت منخفض التلفزيون في أوقات الأخبار السياسية ووقائع الميدان العسكري.

وفي ميادين القتال كانت الأخبار تنوس بين المد والجزر.

من تجربته العسكرية وتواصل سنوات الحرب أدرك بأن الجيش يبدو مرهقاً ويقاتل في مواقع دفاعية أكثر منها هجومية. ومن خلال متابعاته الإخبارية والتقارير الصحفية الأجنبية والعربية عرف بأن أمد الحرب طويل، ولا بد من البحث عن حل سياسي. وفي ظل تنامي عدد الإرهابيين وتسليحهم وسيطرتهم على آبار النفط وبيع المخزون النفطي إلى تركيا، وتواصل التحالف العربي والأجنبي ضد بلاده، بدأ يشعر بالإحباط مع مرور الزمن.

في صفحة من يومياته سيكتب: هنا في هذا الجزء المظلم والكابوسي والضيق من العالم، حيث أتدهور وأتعفن أشعر

بالعجز عن القيام بشيء مفيد لبلادي التي تتمزق أوصالها وهي تنزف تحت مرأى العالم وبصره.

أستمع الآن إلى الموسيقى في الساعة الثالثة والربع. هدوء في الخارج. المدينة هاجعة سوى من الحرّاس القتلة. تنام على إيقاع الرعب وتستيقظ على احتمالات الموت والذبح.

أزيحُ الأحداث الفاجعية قليلاً. أنسى حالتي داخل هذه العزلة المميتة باتجاه النسيان المؤقت كي أتوازن روحياً.

الآن عبر هذه الهدأة الموسيقية شبه الإلهية، أستعيد موجات من الزمان القديم للروح وهي تعبر البراري أنا وأخي بلال المجنون بالصيد والغابات.

تُستعاد الآن نثارات الطفولة. الأوقات التي كنت فيها طفلاً، وفتى، وشاباً مفعماً بالأمل والضوء والبهجة، وعشق الفتيات. كان ذلك قبل أن يأتي زمن الغدر واغتيال البراءة وهذا التوحش الدموي.

أمس تحدثنا نبيل وأنا عن الأخطاء المميتة التي ارتكبت في الداخل ووحشية الأمن والفساد المستشري في المؤسسات والأفراد المسؤولين، وغياب الحريات والقانون وتوسّع دويلات ومزرعة المليشيات. وقال نبيل: كنا في الرمضاء اللاسعة وها نحن الآن في النار المحرقة.

ولعلنا هجسنا سوية بسؤال: هل هذا الانحطاط والفساد

والقمع الذي يمزق ويأكل جسد وروح البلاد يبيح اجتياح البرابرة وتحطيم الدولة الراهنة، وقيام دولة إسلامية تعود إلى القرون الوسطى وعصور محاكم التفتيش؟

في المدى المنظور لا أرى أفقاً مفتوحاً على الأمل.

القتل الطائفي يتواصل سواء في تقطيع الأوصال أو لوك الأكباد كما وحش الغابة في عصور ما قبل التاريخ.

أحلم لو كان بمقدوري تحطيم هذه الجدران الصمّاء وإزاحة هذا السقف الجاثم فوق صدري وروحي، كي أطير وأتنفس صارخاً: لا. لا. لهذه الحرب الطائفية اللعينة نحن قاتلنا من أجل شيء آخر.

«ورأى نفسه على شاطئ بحر. في الأفق سفينة صيد تتجه شمالاً تارة وأخرى غرباً يلوّح لها كي تقترب. في الحلم يرى نفسه مغموراً حتى نصفه بالماء وكأنه يصطاد؛ يقول له جاره الصياد هل ترى الأفق كيف يتراكم ضبابه ويسودّ. علينا العودة إلى الشاطئ لأن الموج المزبد يعلو.

السفينة توغل في البعد وتكاد تختفي في الضباب الرمادي.

في البعد وبين الموج العاتي يرى زورقاً وفيه فتيان يجذفون للكشف عن أقفاص الصيد. وبدا وجه البحر طافياً بالسمك الميت بعد تفجير البحر بالديناميت، ورأى الجثث تتقاذفها الأمواج والتيارات الداخلية. وسأل صاحبه إن كان يراهم؟ ومن ينقذهم في هذا الجو الكالح؟ لا بد أنهم سيموتون غرقاً تحت غمرات الموج.

ورأى أنه والفتية والصيادين الآخرين تحت رحمة هياج وجنون البحر العاتي. وتساءل: لِمَ لا تقترب السفينة وتنقذنا. ولاح في الأفق برق يجرح السماء تلاه رعد رجّ البحر وزلزله.

كان الموج يعلو وبدأ يغمر الجزيرة الصخرية. وفي انخطافة وعيه الحلمي أدرك أنه معزول ومغمور تحت موجة عالية. اختفى صديقه الصياد والآخرون وضاء البحر بالبروق الفوسفورية من السماء حتى حواف الأفق. كان البحر يحترق.

حين استيقظ كان جسده مبللاً بالعرق. بدا وكأنه ما زال يصارع في لج الأمواج».

خلال الإجازة إلى القرية كان اللقاء حارّاً وحميمياً مع الأهل والأصدقاء. منذ حوالي العام بعد تطوعه وفرزه إلى الرقة يلتقي أسرته. كانت الأسئلة تنهمر عليه حول وجوده في المدينة النائية وطبيعة الناس وعاداتهم، وكيف ينظرون إلى الغريب عن بلدهم. معظم هذه الأسئلة رشقتها الأم التي رأت ابنها وهو يعود من بادية الشام حيث النهر الكبير الفاصل بين البحر والصحراء كما تتخيل.

كان يحيى يروي عن طيبة الأهالي وكرمهم وشهامتهم واحتفائهم به وخاصة أسرة آل نصّار الودودة.

ـ أنا لم أكن غريباً يا أمي كما تتخيلين. الجيش وعناصره من جميع المحافظات هو جزء من المدينة يرى فيه الأهالي حامياً وسياجاً.

وعلّق الأب على مناخ البادية الذي ينعكس على طبيعة الناس وقسوتهم وجفائهم والحذر من الغريب.

- أبي هذه نظرة قديمة ومتخلفة في عصر التعليم والتطور العلمي والتواصل الاجتماعي بين البشر. العالم صار قرية. ما تراه قد يصح على أهل البدو والأرياف النائية. نسبة التعليم والثقافة في الرقة أعلى مما هي في محافظتنا، في مجالات شتى. هل تعلم أن وزير الثقافة هو دكتور من الرقة قبل خمسين عاماً.

وسأل أخوه بلال عن الصيد، فقال: الطيور لا حصر لها وخاصة الدرغل واليمام والقطا والدرّاج. أنا لا وقت لدي للصيد، تمنيتك لو تكون هناك.

- يعني في اليوم كم طريدة يمكنك أن تصطاد؟

- مئات الطرائد. الطيور هناك أسراب لا تعد ولا تحصى وليس كما في أحراجنا وغاباتنا الفقيرة.

- يا إلهي. صرخ بلال: يحيى ما رأيك لو تأخذني معك؟

واعترضت الأم: والمدرسة يا دكتور البكاروليا؟

- نحن في العطلة الصيفية ولا توجد مدرسة.

وسأل يحيى عن كلبه فيدو عابر الأدغال، فقال بلال بغصّة: لدغته أفعى في الغابة. حملته بين ذراعي جرياً إلى عيادة الطبيب البيطري في الناحية. عبر الغصة سالت دمعته: نفق في الطريق. حفرتُ له قبراً تحت السنديانة الغربية ودفنته هناك.

كان يشهق وهو يروي.

وقالت الأم مازحة: وفي أول كل شهر يزوره ويشعل له البخَور.

دَرَجَ يحيى لفافة تبغ من علبة والده كاظماً غيظه وحزنه على الكلب الوفي، عَبَر مخيلته وهو يراه قبل عام يثب في الأحراج كما الفهد بحثاً عن دجاج الأرض البرّي والحجل.

قال الوالد: الأفضل طي هذه السيرة المُنغّصة والتفكير بالغداء.

احتفالاً بيحيى بركات حامي الوطن والحبيب والغالي على أمه أوعَزت الأم بذبح الديك الأحمر استعداداً للطبخة التي يحبها: يخنة الدجاج مع البندورة والبطاطا والبصل مضمخة بورق الغار.

في اليوم الثالث من الإجازة احتفى الأصدقاء والأقارب بقدوم يحيى بركات بعد غياب طويل. عمّه الأستاذ وفيق هيّأ السهرة في بيته مع لفيف من الأصحاب.

كانت المائدة منوعة من الخضار واللحم والسلطات والمازوات، وكانت سيدة الوليمة دمجانة عرق بلدي مدّخرة لهذه المناسبة. قال العم: مسجّلة باسمك خبأتها في القبو بعيداً عن عيون السكرجية من الأصدقاء.

صُبّت كؤوس العرق ورُفعت الأنخاب وفي المقدمة نخب يحيى الذي لقبه ابن عمه بالجندي البطل حامي الوطن.

- نخب لقائنا جميعاً. أنا لست بطلاً ولم أخضْ معركة حتى الآن.

وقال ابن العم الذي بدا حماسياً أكثر مما ينبغي: كل جندي في جيشنا بطل ومنذور للدفاع عن الوطن وحماية الحدود من العدو.

وردّ الأستاذ وفيق على ابنه: خفف من غلوائك وحماسك يابني. كل ما قاله يحيى: أنا في الهيجاء ما جربت نفسي كما يقول الشاعر. لماذا تُتوّجه بطلاً قبل الحرب!

وقال أحد الحضور: البلاد دائماً في حالة خطر والأعداء يتربصون كما حدث في العدوان الأخير على مركز البحوث.

وقال آخر: وقبل ذلك الهجوم على قوافل ادّعت إسرائيل أنها تحمل صواريخ بعيدة المدى على الطريق بين دمشق ولبنان.

الأستاذ وفيق أحس بأن السهرة السياسية ستعكر الجو فاقترح إغلاق هذه البوابة المصدّعة للرأس: الحوار حول إسرائيل والعرب وأطماع العدو وتحرير فلسطين ومن ثم الجولان والحروب التي جرت منذ دخول الجيوش العربية إلى فلسطين وهزيمتها وما تلا ذلك هذا تاريخ هزائمنا وهو متروك للمؤرخين. إذا بقينا نردده في كل مناسبة فالسلام على لحظات جميلة كهذه اللحظة.

ورفع كأسه: أغلقوا لنا هذه السيرة ولنشرب كأس حضور ابن الأخ العزيز، ونخب أصدقائه من آل نصّار.

سأل يحيى عن الوضع الأمني وأحوال الشبّيحة والعصابات الخارجة عن القانون. فقال العم: في غيابك ارتُكبتْ جرائم يندى لها الجبين. وروى حادثة الاغتصاب المروّعة لفتاة في القرية المجاورة.

- أحد زعماء العصابة أراد الزواج من الفتاة فرفض الأب. هاجم الزعيم مع رجاله القرية واختطف الفتاة عنوة واغتصبها هو وحرّاسه ثم أحرقوها، وبعد ذلك نقلوها إلى المشفى وادّعوا أنها انتحرت وحاولوا إنقاذها.

- وماذا فعل الأب؟ سأل يحيى.

- فضح الجريمة. وروى اقتحام البيت واعتداءهم عليه وعلى زوجته بالضرب بأعقاب البنادق والمسدسات وخطف الابنة إلى الأحراج حيث تم الاغتصاب المروّع. وأضاف: القرى المجاورة ضجت بالحادثة ووصلت القصة إلى المحافظ والأمن والشرطة.

- ولم يتحرك المسؤولون؟ سأل يحيى.

قال أحد الحضور: هؤلاء كلاب حراسة. موظفون في مزرعة المافيات. تصلهم العطايا كل شهر قبل الراتب.

وقال العم: حتى تكون هناك دولة أو أمن حقيقي لا بد من

إغلاق مزارع السلطة هذه التي صارت كابوس الشعب ولعنته الدائمة.

ورويت في السهرة حادثة مصرع واحد من قادة هذه العصابات في قرية الدوير قرب جبل النبي يونس. قُتل رمياً بالرصاص من قبل أحد الفلاحين دفاعاً عن أرضه التي حاول هذا الشبّيح الاستيلاء عليها مراراً وضمّها إلى مزرعته المتاخمة. وأضاف الراوي: كان الفلاح مع ابنه الشاب يعزقان الأرض الصغيرة ويزيلان الأعشاب الضارة ويُرتّبان حجارة التخم المنهارة حين اقتحم قائد العصابة الأرض بلباسه العسكري المزيف صارخاً في وجه الفلاح: منذ الآن هذه الأرض ما عادت ملكك. ثمنها عشرون ألفاً ستصلك غداً مع أحد رجالي، بعدها لن أرى أحداً من ذريتك مفهوم؟

وعبر الحوار الحادّ والتهديد ورفض الفلاح بيع أرضه، هجم على الفلاح ورماه أرضاً وداس وجهه: لن تقبض قرشاً واحداً يا ابن العاهرة.

وسأل يحيى بعد احتساء رشفة من كأسه: وهل استولى ذلك الزعيم الغاصب على الأرض؟

أضاف الراوي: بسرعة البرق وثب الابن الشاب إلى البيت وتناول البندقية. درز الجنرال المزيف بالرصاص وقال له وهو يتمرغ بدمه على تخوم الأرض: بالدم والرصاص نحافظ على

ملكنا أيها الحشرة. يا ابن السافلة خبّر الآن سادتك وسلالتك في الدنيا والآخرة كيف تحمى الأرض.

وفي اليوم نفسه سلّم نفسه إلى مركز الشرطة في الناحية.

أزيحت السحابة الدرامية المخيمة. كان الحاضرون في السهرة وأهالي القرى يعرفون الحكاية وملحقاتها من جرائم العصابات المتنقلة. وحده يحيى بركات النائي منذ وقت بعيد فوجئ بهذه الأساليب الغابيّة المتوحشة، وسأل نفسه: في مناخ داخلي كهذا كيف نواجه إسرائيل؟ واستبطن عبارة: يبدو أننا مهزومون من الداخل وقبل الدخول في المعركة.

ولأول مرة يشربون نخب قاتل شهم وجريء في الدفاع عن الحق، وبنشوة رفعوا الكؤوس نخب الفلاح الذي صرع الزعيم المغتصب.

في اليوم الرابع من إجازته أسرّ لأمه عن علاقته بسحر ورغبته في الزواج منها. كان الخبر مباغتاً للأم. سألته وابنة عمك؟

ـ ما بها؟

ـ ناطرتك من يوم مغادرتك وتطوعك.

ـ أمي أنا وابنة عمي علاقتنا أخوية. منذ الطفولة ونحن نعيش كأخوين سواء في المدرسة والبيت أو البرية في مواسم قطاف الزيتون أو زراعة التبغ.

ـ لكن القرية والناس كانوا يرون شيئاً آخر بعد ما كبرتم. هم يقولون: يحيى لزهرة وزهرة ليحيى.

ضحك وهو يشرب القهوة الصباحية في ساحة الدار: ولا في يوم باح أحد منّا بكلمة حب للآخر. ثم كيف يمكن لإنسان الزواج من فتاة هي بمثابة أخت؟

ـ زهرة أسرّت لأختك بشيء من هذا.

ـ ماذا قالت؟

- حين يعود يحيى في إجازته سنعقد خطوبتنا.

في داخله امتعض من هذه الحكاية العابرة والمخترعة.

وسألت الأم: لماذا تفضّل الغريبة على القريبة؟

زفر متنهداً: أنا لا أفضل يا أمي. أنا وسحر نعيش حالة حبّ ألا تفهمين ما معنى الحب؟ أنت وأبي ألم تتحابا؟

وبنوع من الاستسلام نهضت ودخلت البيت وهي تقول: الأمر أمر والدك حين يعود من الكرم افتح معه الموضوع.

بعد الغداء مع الشاي في الدار قال يحيى للوالد: هناك موضوع خاص أريد استشارتك فيه.

وقال الأب: خير إن شاء الله.

حين فتح موضوع العلاقة والزواج من سحر بوغت الأب. وكمن يقذف قنبلة موقوتة فَكَّ أمانها سأل الوالد: هل هي من «جماعتنا»؟

دهش الابن: ماذا تقول يا أبي؟

- هل البنت من ملّتنا؟

استحضر السؤال غيوماً قادمة من قرون غابرة. ورأى سحباً تتدلى منها سيوف تقطر دماً وجثثاً دفنت عظامها على دروب الكوفة والبصرة وكربلاء منذ آلاف السنين.

صمت الابن قليلاً وهو تحت الصدمة. أشعل سيجارة.

- حين تزوج النبي محمد من السبيّة صفية اليهودية كما تعرف كرجل دين هل سألها عن ملّتها؟

بوغت الأب بالسؤال. قال: لكنه تزوجها بعد دخولها الإسلام.

وبنبرة غضب قال الابن: أنا والفتاة التي أنوي الزواج منها من إسلام واحد. من أين أتيتم بهذه الفروق المذهبية؟

- من يخرج من ملّته يخرج من دينه. قال الأب مستنكراً.

ورفع يحيى الصوت أعلى: هذه تعاليم شيوخكم الجهلة والأميين.

ونبر الأب: لا يحق لك شتم أسيادنا ونعتهم بالجهل.

قال الابن: العالم يتقدم إلى الأمام باتجاه العلم والنور وأنتم تعودون إلى الوراء باتجاه الجهل والظلمات.

وأضاف: تأمّلْ تقدم العالم الذي وصل إلى القمر والقنبلة الذرية بينما نحن ما زلنا في الكهوف نتجادل في الملل والنحل وأحقية الخلافة بين علي ومعاوية. هذه بلاد تنحدر نحو الهاوية والدمار بطوائفها المقيته والمعادية للإسلام.

في الصباح غادر القرية دون وداع أبيه الغائب في الكرم.

ودّع أمه الباكية وأخاه وأخته. قال لأمه بغصة حزن ومرارة: ربما سيمضي وقت طويل قبل أن نلتقي.

باردأ وقاسيأ جاء الشتاء هذا العام. نقص وزني أكثر من عشرين كيلو غراماً، وها قد بدأت أحسّ بالهرم من خلال هذا الصقيع الذي يخترق الجلد إلى العظم. التدفئة المتوافرة: مدفأة كهربائية صغيرة تعمل حين يأتي التيار الكهربائي، والأغطية والبيجاما الرياضية والقبعة الصوفية. أخيرا زودني نبيل بكيس مطاطي يُملأ بالماء الحار لتدفئة القدمين.

جسدي في حالة دائبة من الحركات الرياضية لمواجهة البرد والصقيع. أقرأ في الفراش غالب الأوقات، وحين انقطاع التيار أستمع إلى الأخبار وبعض الأغاني من «الترانس» الصغير.

حين أعاين نفسي في المرآة يخيل إلي أنني شخص آخر. جسد شبه محنط وممسوخ كأنه مستنسخ من عصور منقرضة. لا بد أنني في حالة تحوّل من البشري إلى نوع آخر من المخلوقات على ما يبدو. بنوع من التصور المزاحي واللامعقول تخيلت نفسي في الشارع، وتساءلت: ترى هل سيعرفونني وأنا بهذه الذقن الطويلة والهيئة المتوحشة أم يظنونني أحد هؤلاء

الإرهابيين؟ الاشتباه الوحيد: أنني بلا سلاح. ومع ذلك جازفت وهماً باختراق الجدار والخروج إلى الشارع.

بدت المدينة غارقة في الظلمة وكأنها مدينة أشباح، ثمت مصابيح بعيدة خافتة الإضاءة. هل هي مواقع المسلحين وثكناتهم؟ تذكرت احتلالهم لمراكز الشرطة والبلدية وقصر المحافظ بعد تسليم المدينة إثر مقاومة محدودة، جو المدينة المحتلة خانق وكابوسي. تتموج في فضائها روائح حامضية وكأن الفضاء رُش بالنفتلين، أو آثار كلور وميتان مختلطة مع أبخرة حمضية ونفايات ممزوجة برائحة عظام مهترئة.

كنت أسير كأعمى مرتعشاً من الصقيع على ضوء الفضاء والنجوم في ليلة صحو. بغتةً دهمتني فكرة الذهاب إلى موقع المعركة. بدا لي الأمر نوعاً من الحج والزيارة إلى مكان مقدس.

حين أشرفت على الموقع شعرت بغصة: هنا كان ينبغي أن أموت مع رفاقي الذين استشهدوا. وتذكرت كلمة قائد مفرزتنا الشهيد عن الطلقة التي توازي وخزة دبوس. على الشاشة وكبروق خاطفة مُدوّية بالرصاص والقنابل عبرت المعركة وكأنها حلم رأيته أكثر من مليون مرّة وأنا في مأواي.

سألت نفسي وأنا أعود: أين هم الآن الذين نجوا من تلك المعركة؟

حوار مقهى أبو نوّاس بين الصديقين كان محبطاً. روى نبيل عن لقائه بخالد أخ سحر ومحاولات أم عدنان مع أمها التي أحالت القصة إلى الوالد: هو في النهاية من يقرر.

- الطريق شبه مسدود على ما يبدو. عقول مصمته كأنها قدّت من حجر.

حكى عن حواره مع الأستاذ خالد حول منحى العلاقة الطبيعية بيني وبين أخته، هذه العلاقة التي تفضي إلى الزواج في نهاية المطاف.

- قلت في نفسي هذا شاب تقدمي ومثقف لعله يكون جسراً لإقناع والده الزمّيت لكنني فوجئت بموقفه السياسي الرافض.

كانا يشربان الشاي وسط ضوضاء المقهى، ورميات النرد والأصوات الضاجة في الفضاء الداخلي المفعم بدخان السجائر وعبق تبغ النرجيلة.

- أنا لا أفهم كيفية ربط الزواج بالسياسة؟ تساءل يحيى.

- يا عزيزي، السيد خالد كان سجيناً لمدة عامين في أعقاب موجة اعتقالات الثمانينات التي جرت في مرحلة أحداث الإخوان المسلمين واعتقال الشيوعيون بجريرة التواطؤ مع الإخوان. ويبدو أنه تعرّض للتعذيب كغيره من المعتقلين.

بعد أن أشعل سيجارة سأل يحيى بنوع من الاستغراب: وأنا ما ذنبي هل اقتحمت بيته واعتقلته؟

- لديه موقف معادٍ للنظام ورموزه. وأنت كعسكري واحد من هذه الرموز.

وتابع نبيل: الهوى والتعصب يجرفان الحقيقة نحو وديان العمى. من الصعب إن لم يكن مستحيلاً الفصل بين الأهواء الذاتية والأحكام الموضوعية.

قلت له: اسمع يا خالد هذه علاقة شخصية سليمة وصحية تقود إلى نهاية طبيعية هي الزواج. أنت كرجل متنور كيف تربط بين مسألتك الخاصة التي تأذيت منها ومسألة أختك الخاصة بها والمصيرية؟ أنا لا أكاد أفهم اعتراضك.

- وماذا كان جوابه؟ سأل يحيى.

- يحيى بركات مسمار في آلة نظام قمعي فاسد وطائفي عدو للشعب. قال. وتابع نبيل حواره: قلت لخالد يبدو أنك والسيد الوالد تلتقيان. أبوك يقول: أنا لا أزوج ابنتي من رافضي عدوّ للدين ولو أدى بي إلى ذبحها.

قال نبيل: غسلاً للعار برأيك يا أستاذ خالد. واستطرد: أمر مخجل أن نصل إلى هذا المستوى. أن نستدير إلى قواقع التاريخ العفنة وننبشها في القرن الواحد والعشرين.

كنا في بيتنا نشرب القهوة وندخن باحتدام حين حاول خالد الانعطاف بعيداً عن مصيدة الاتهام، فقال: لا. أنت فهمتني خطأ. أنا موقفي سياسي محض. الموضوع الطائفي يعني الوالد والأسرة ولا أراه حجر عثرة.

قال يحيى: والدي وأبوها مسافران في قطار واحد على ما يبدو. هذه بلاد تتدحرج نحو التهلكة.

- وأنت وسحر وسائر هذه الأجيال المتنورة تحملون على ظهوركم خلافات سقيفة بني ساعدة وإرث معركة صفين والجمل وكربلاء إلى يوم القيامة.

حين خرجا من المقهى إلى الشارع بدا يحيى مكروباً وهو يدخن.

قال نبيل: من الآن وصاعداً سيحكم الحصار على سحر مع المراقبة. الأفضل الابتعاد عن اللقاء مؤقتاً والاكتفاء بالهاتف والرسائل.

في تلك الليلة يضغط عليه كابوس غامض ومخيف سيسجله في دفتر يومياته: «مرتفع صخري متعرج بمنحدرات وتلال بلا عشب ولا شجر. يطوّق المرتفع الواسع وادٍ ضيق، يفيض بالماء شتاء ويجف صيفاً.

حين يعبر الوادي يكون الماء ضحلاً لا يكاد يعلو الركبة. بعد العبور يرى أناساً كأنه يعرفهم وآخرون غرباء يتحركون عشوائياً بحركات مبهمة مع لغط خافت لكأنهم على خشبة مسرح. يبدو المرتفع شبيه جزيرة سياحية مقفرة وكأنها هبطت من الفضاء. بغتة يمتلئ الوادي بالماء.

بدا واضحاً استحالة عبوره بعد أن تحوّل إلى ما يشبه النهر الهادر والدائري حول الهضبة. هو والآخرون أصبحوا الآن في الحصار.

في مواجهة الضفة الأخرى جدار صخري عالٍ يطوق المرتفع ويستحيل تسلقه. وراء الجدار وعن بعد تُرى مدينة غامضة المعالم.

يبدأ إحساسه بالجوع. يتجه نحو رجل غريب يحمل سلالاً تحوي مأكولات على شكل سندويش. يسأله إن كان لديه شطائر جبنة أو لبنة. يقول البائع بأن الآخرين أكلوها ولم يبق إلا شطائر السمك. يتناول واحدة تبدو داخلها سمكة منتنة. يعيدها إلى السلة.

فجأة تحدث حالة هلع وسط الناس الذين يتموجون من الفزع حين تدهمهم عن بعد قطعان من الوحوش الشبيهة بالكلاب البرية راحت تقترب منهم.

يرى نفسه منفرداً بعيداً عن الآخرين. محاصر وأعزل من أي سلاح داخل بقعة معزولة من المرتفع. مجموعة من هذه الوحوش السوداء والرمادية تجري وراءه مكشرة عن أنيابها. يحاول الصراخ والاستنجاد للخروج من الحصار. يختنق الصوت ويستيقظ مهلوعاً تحت ظلال الكابوس الغريب. مع أول عضة في باطن قدمه يصرخ».

خلال تناول قهوة الصباح وتدخين سيكارة بدا مشوّشاً ومكتئباً من ضربة الحلم الكابوسي. حاول إدراك بعض رموزه وتذكر الناس الذين تبدو ملامحهم معروفة لديه. وسأل نفسه: هل هم من أهله وأقاربه؟ أم هم أصدقاء طواهم النسيان والموت؟ أم هي خيالات أضغاث؟

لقد مضى عليه زمن طويل ولم يتصل مع أحد من أسرته. استبدّ به الشوق حتى أنه نسي الخلاف مع والده حول سحر

والأمور الدينية. وأحس باللوم والندم لأنه لم يتحدث مع عمه وفيق حتى الآن، الرجل المتنور أكثر من والده في المسائل الدينية. وفي لحظة أدرك خطأه حين غادر القرية بسرعة بعد احتدام الحوار مع أبيه.

تناول الموبايل، آملاً ألّا يكون العم وفيق قد غيّر رقمه، وكتب: العم العزيز سيفاجئك أن ابن أخيك يحيى بركات ما زال حياً. أنا في مأوى آمن في كنف أصدقاء هم إلى الأهل أقرب. لا أعرف متى أخرج من هذه المحنة. الآن أنا أفضل حالاً من الناحية الروحية. حين نلتقي، إن سمحت لنا الأقدار، سأروي لك مغامرة السندباد البركاتي. سلام من الأعماق لكم جميعاً.

بعد دقائق اهتزّ الجوّال الصامت. كانت رسالة رد من العم وفيق:

حمداً لله على سلامتك. اعتبرناك مفقوداً في عداد الشهداء. فرحتنا بسلامتك تطال السماء. أمك وأختك زغردتا بين الدموع والفرح. أخوك بلال أطلق النار في السماء ابتهاجاً. أما أبوك المريض فقد طلب إنزال صورتك عن جدار البيت وراح يقبلها ويغمرها بالدعاء للرب الذي أبقاك حياً. فرحتنا ستكتمل بلقائك.

في هذا الصباح استيقظت على مغص في بطني. قلت لا بد أن هذا بسبب البرد. اتجهت نحو المطبخ وأعددت إبريق الزهورات. كان المغص يتفاقم ودهمني شعور بالغثيان. قلت في نفسي رغم ما أنت فيه لا ينقصك سوى المرض.

من المستحيل استدعاء طبيب إن وجد، كما أن الصيدليات تحت المراقبة المسلحة، ولعل معظم الأدوية مفقودة بسبب هذه الأحوال الماساوية.

اندسست تحت الأغطية بعد أن رشفت كأس الزهورات الحار. هدوء نسبي في المعدة. تذكرت عشاء البارحة. كان ككل الأيام السابقة. لا بد أن السبب هو حالتي الصحية التي تتدهور والوضع النفسي الذي وصل حافة اليأس. ثم هذا الحجر والحصار والرطوبة والهزال الجسدي.

لم ينفع منقوع الزهورات سوى أقلّ من ساعة. عاد المغص يتجدد. كان صعباً التقيؤ رغم محاولاتي استجداءه بإصبعي. بعد الخروج من الحمام شعرت بالراحة قليلاً، بداية إسهال

ستكون ليلة صعبة لا محالة. بعد العودة إلى السرير غمرتني الحمى وبدأ التعرّق مع ارتعاش الأطراف.

وتذكرت ما كانت تردده أمي دائماً (البرد سبب كل علة والتعرق بداية الشفاء).

بعد الظهيرة هتفت لنبيل كي يأتي. حضوره الأسبوعي كان يملؤني بالراحة والثقة، فهو نافذتي على العالم، وجدار الأمل لرجل كان على حافة الهاوية فتلقاه من الهلاك وآواه في بيته.

حين جاء فوجئ بحالتي البائسة، جسّ نبضي وحرارة جبهتي وسأل ماذا تناولت: كأسان من الزهورات.

ـ أعتقد أن الوضع هو حالة التهاب أمعاء ليس أكثر. سأصعد إلى البيت وآتيك بالدواء. المهم الآن هو الحمية والدفء.

هيأ لي مغلي النعناع والبطاطا المسلوقة، حضوره أنعش الأمل في نفسي وأراحني عضوياً.

ـ الحمية يا صديقي أهم شيء. الأهم من هذا كله القوة الداخلية وإزاحة اليأس. هل تدرك يا يحيى كم كان الوضع صعباً لو أتيتني مصاباً، جريحاً أو مكسوراً مثلاً. ماذا كنت سأفعل وكيف أداويك. لا بد أنك كنتَ محظوظاً أيها الشاب التعيس.

في الليل لم أنم إلا قليلاً. نزهة مُمضّة بين الحمّام

والسرير. أحسست أنني مجوّف وخفيف ـ جلد حيوان نافق جدير بأقرب مزبلة جرّاء ما فقدت من سوائل.

كان تفكيري مضطرباً ومشوّشاً. لكم تبدو حياة الإنسان هشة وبلا معنى.

هذه الكتلة المركبة من اللحم والغدد والعظام والإفرازات. الحيوان المرمي وحيداً ومهجوراً في هذا العالم. في أوج اندفاعة شبابه وغروره يتخيل أن بإمكانه تغيير العالم وتسيير دفة الكون.

إنه الكون الممسوخ يتحول الآن تحت سطوة المرض والعجز إلى حشرة تزحف بين السرير والمرحاض.

وفكر بالحياة والموت والعبور الآني والتآخي بينهما. وعبْر هواجسه غير المترابطة سأل نفسه عن القوة الأعظم من الإنسان التي تدير هذا الكون وتمسك بمصير البشر. أهو القدر العشوائي والعبثي، أم هو الله كما تقول الأديان؟

وبين السهو والنوم بعد أن أنهكته الأسئلة رأى نفسه تائهاً عبر مكان غريب في ضاحية من ضواحي مدينة لا يعرفها، وكان في أحلام بعيدة مضت يعرف بيتاً يأتي إليه أواخر الليل. هناك كان أفرادٌ من أسرته، وكانت أمه تقول له: لماذا تأتي متأخراً يا بني؟

وسأل الناس العابرين عن البيت الذي تاه عنه منذ زمن سحيق فلم يجبه أحد، كانوا منهمكين في حمل جنازة رُفعت على

الأكتاف، وفي ترديد التراتيل. سمع أصوات نحيب وراء الجنازة وفاحت في الفضاء رائحة بخور مع أصوات الله اكبر. سبحان من قهر عباده بالموت. هذا ما وعد الله.

واستيقظ مذعوراً وهو يسبح في العرق.

أعطاه الحلم، وهو مستلقٍ في الظلام، نوعاً من الهدوء والسلام الداخلي.

وقال لنفسه: الآن تتساوى الحياة مع الموت. الحياة الحلم، والموت اليقظة.

حالة النقاهة تشبه الولادة الجديدة لكأنك خرجت من بئر مظلم إلى الضوء ونور الشمس. عبر أسبوع المرض كان الجسد في مكان ما من صحراء التلف والفساد، والروح في مكان آخر تقاوم هذا الفساد والهلاك.

أنا الآن أتحرك في فسحة الغرفة وأمشي رويداً لأُمرّن القدمين واليدين وسائر الأعضاء على الحياة من جديد كما لو كنت طفلاً يحبو.

كنت أسمع خفقان الصدر والشهيق والزفير وجريان الدم وأنا أجس النبض. فتحت النافذة الشرقية دخلت رائحة الأرض والمطر إلى أعماق الروح، وصعدت الرائحة في فضاء المدينة لكأنني والمدينة نُبعث من جديد. كان المطر يهطل وأسطح المنازل والشوارع تغتسل، لكأن المدينة المحتلة تولد من جديد وتداوي جراحها مستعيدة بهاءها القديم وهي تتطهر بمياه السماء النقية.

في هذا الجو المضاء بخيوط المطر والبرق وهزيم الرعد

تذكرت سحر، راودتني فكرة الاتصال بها عبر رسالة أخبرها فيها أنني ما زلت حياً وأنها لم تغادر الذاكرة خلال أشهر الاختفاء والانعزال عن العالم.

على شاشة الجوّال كتبت: سحر العزيزة: إن كنت ما تزالين تنكرينني كما أذكرك. أنا ما زلت على قيد الحياة في مكان خفي وآمن. كيف أنت؟

رغم الهزال وأسبوع الصيام سوى على السوائل والبطاطا أحسست بالجوع والتوق إلى التدخين بعد انقطاع طويل.

وأنا أعد القهوة جاء نبيل ومعه كيس فيه العلب البلاستيكية المعهودة والخاصة بي. قال: أطفئ الغاز. الطعام أولاً ثم القهوة. كيف أنت الآن؟

ـ أفضل مما مضى.

ـ آن أوان العودة إلى الطعام الطبيعي. بإيحاء مستتر أوحيت إلى أم عدنان شهوتي إلى اليبرق مع شوربة القمح واللحمة. هذا أوانها في هذا الجو البارد والممطر.

وأردف: انهمك في مائدتك. سأعد القهوة.

كما يأكل نمر مجوّع أجهزت على الوليمة. مع القهوة ونحن ندخن فاتحت نبيل برسالتي إلى سحر. قرأ الرسالة على شاشة الموبايل.

ـ جيد أنك أبقيت مكانك مجهولاً. نحن الآن تجاوزنا الخطر بنسبة كبرى لكن علينا احتساب المفاجآت.

وسأله يحيى إن كانت سحر تزورهم وكيف هي بعد موقف أهلها السلبي وخبر استشهادي.

- سحر حزينة من أجلك وأهلها غير مبالين بحادث موتك. ثم فاتني إعلامك أن أخاها خالد اعتقلته جبهة النصرة لمدة أسبوعين ثم أطلقوا سراحه.

- هاه. كيف؟

- أخبرهم عن اعتقاله من أمن النظام لمدة عامين. وشرح لهم أساليب التعذيب في السجون وآثار هذا على جسده كما ادّعى. وأضاف، وهذا بيت القصيد في سبب إطلاق سراحه، أنه تبرأ من الشيوعية واليسار.

- عاشت الثورة. قال يحيى ساخراً.

- هناك انشقاقات داخل النصرة وموالاة لداعش. غير الموالين خرجوا من الرقة إلى قلعة جعبر وحويجات الفرات الأوسط ومعهم عناصر من الجيش الحر.

وأضاف نبيل: الحرب طويلة وأمريكا تضرم نيرانها في جبهات جديدة كلما اقتربت من الهمود في جبهات أخرى.

وسأله نبيل: ماذا تقرأ هذه الأيام؟

- أرشدني. أي كتاب في رأيك أفضل الآن؟

ـ اقرأ ألف ليلة وليلة. لديك في المكتبة الأجزاء الأربعة. ستنسى حالتك والحرب وتسوح في أرجاء القصص الخيالية وكأنك السندباد البحري في مغامراته اللامعقولة عبر أصقاع بغداد والبصرة وبلاد فارس والسند والهند والعوالم الأسطورية المجهولة.

فتحت شاشة الموبايل. كانت هناك رسالة تقول: عزيزي يحيى. هل هذا حلم أم حقيقة؟ لا أكاد أصدق أنت حيّ إذن وجميع ما نشر عن استشهادك كان كذباً! يا للبشرى المزهرة للروح. بقوة حبّي أضمك آملة أن أراك يوماً بعد النجاة.

كان بإمكاني أن أطير خارقاً جدران الغرفة نحو فضاءات لا تُحدَ. شيء ما كان جافاً وذابلاً أينع في الأعماق. شجرة يابسة أزهرت. نسيت حالتي المرضية وأشهر الحصار والعزلة. كانت سحر معي ليس في الحلم وحسب، كنت أظن أن موقف أسرتها السلبي ثم خبر موتي قد نأيا بها عني بعيداً نحو غياهب النسيان.

تذكرت آخر لقاء بيننا في حديقة الرشيد. تداولنا موضوع الرقابة ورصد حركاتها، وقالت بشكل مفاجئ بأن ابن عمها يراقب كأي مخبر إلى أين أذهب أو أتجه بعد خروجي من الجامعة، أخبرتني بذلك أختي الصغرى. فيما بعد عرفت أنه تحدث مع والدي بشأن الخطبة. وأضافت: الوالد لم يمانع من حيث المبدأ لكنه طلب التأجيل إلى ما بعد تخرجي من الجامعة.

أخبرتها عن حوارنا أنا ونبيل، وضرورة الاكتفاء بالرسائل عبر الموبايل حرصاً عليها، وعَرَضاً سألتها عن موقفها من ابن عمها. فقالت بأنه شاب استعراضي وانتهازي، لأنه عضو مكتب تنفيذي في اتحاد الطلاب يتباهى بعلاقاته مع مسؤولين في الدولة ومع الأمن.

وأضافت بمقت: هذا النوع الوصولي لا يستهويني.

عَبَر بنا بائع القهوة الجوال وهو يطقطق بفناجينه. طلبت فنجانين وأشعلت سيكارة. وتشعب الحوار إلى الأحداث ووضعي العسكري.

- يبدو أننا نقترب من مرحلة الاستنفار العام. الأمور تتسارع والبلاد مقبلة على مستقبل غامض مع استمرار المظاهرات وبداية الانشقاقات في أوساط الجيش.

وسألتني عن وضعي: وأنت ألا تعرف شيئاً عن حالتك هل ستبقى في الفرقة أم لا؟

- لا أدري. من الممكن أن نفرز على الحواجز أو المفارز داخل المدينة. هذا أمر تقرره القيادة.

أمامنا عبرت طفلة صغيرة بثياب فقيرة، تحمل أطواقاً من الياسمين علّقتها على صدرها.

- الله يخليلك ها العروس الحلوة. اشتري لها طوقاً. كانت تتقدم منا بنوع من الاستجداء الخجول.

سألتُ سحر لمزاً، فضحكت قائلة: بالتأكيد لن أذهب إلى البيت وهو في رقبتي. سأهديه لأختي.

وأنا أطوق عنق سحر بعقد الياسمين وهي منحنية قليلاً إلى الأمام، بدت الحركة بإشارتها المجازية، والاختلاج الداخلي لروحينا، وكأنها عقد رمزي بين حبيبين لن يفترقا.

كان ذلك آخر العهد بها وجهاً لوجه. ونحن نتضام والغصة في الحلق والعبرة على الحافة، ما كان أحد يعرف إلى أين ستودي دروب المستقبل المجهول.

طريق المطهر

كان الخبر مباغتاً وصادماً في آن. حين أتاني نبيل بعد ظهيرة هذا اليوم قائلاً: يبدو أن المنادي قد نادى أخيراً للرحيل يا صديقي.

وبدأ يشرح الأسباب من خلال اكتشاف مخبئي. ابنة أخيه مرام لمحتني من خصاص الباب الموارب للغرفة أثناء تنظيف الشقة. بدهشة أخبرت أمها أنها رأت شخصاً غريباً ملتحياً وحزيناً في غرفة عمها الخاصة. بدت الأم مفاجأة بالخبر الغريب. سألت زوجها من يكون هذا الملتحي فباح لها بالسر.

كان لا بد من عقد اجتماع عائلي لاستدراك الوضع خشية إفشاء الخبر من قبل الفتاة في المدرسة.

بعد خروج نبيل انتبهت إلى حالتي. ومَضَت في الذاكرة حياتي كلها في هذا المخبأ الذي ألِفته. في الأيام الأخيرة كنت مندمجاً مع حكايا ألف ليلة وليلة والسندباد. نسيت خلالها نفسي وما عدت أفكر بمفاجأة الخروج. وها هي الليلة الثانية بعد

الألف من الليالي العربية تباغتني وعلى هذا السندباد الاستعداد لرحلة جديدة عبر طريق المطهر.

أن تبقى على قيد الحياة وتصل سالماً تحت أجنحة ملائكة خفيّة، أو تقذف بك الأقدار إلى الموت، بدا الأمر مُرمى في غياهب الغيب.

كان العام والنصف الذي مضى، عبر المعاناة والصبر والعزلة وقهر النفس، في مواجهة حاسمة ومصيرية مع ما سيحدث غداً أو بعد غد.

على نحو عبثي اكتشفت نزعة اللامبالاة والمساواة بين الحياة والموت في داخلي وكأنني مقذوف في مهب الريح.

مراراً عبرني الموت منذ بدء المعركة حتى محاولة دهم الشقة ثم موتي على يد المسلحين عبر الانترنت، وأخيراً المرض.

بمرارة وسخرية ابتسمت وأنا أتذكر مقطع بيت من الشعر: ما لجرحٍ بميتٍ إيلامُ. جالت عبر شاشة الذاكرة شهامة ونبالة الأسرة التي حمتني وكأنني جزء منها، بعيداً عن التفكير ولو لثانية بالوضع الطائفي.

وتساءلت في سرّي: كم عدد البشر المتنورين والمطهّرين من جراثيم الطوائف في بلادي!

في المساء بعد أن شربنا القهوة، وتداولنا حول الخروج فاجأني نبيل بأن قسماً من الأسرة سيسافر معي من الرقة إلى سلمية. هذا طريق المطهر فإما إلى النار أو إلى الجنة. وتحدث عن الخلاف حول مرافقة الأسرة وإن كان هذا ضرورياً. قالت أم مرام لزوجها باحتدام: ضروري وألف ضروري لقد سئمنا. هذه الحياة ما عادت تُطاق في ظل هؤلاء الوحوش. الحياة والموت تساويا ومصيرنا مع يحيى بركات واحد. لقد أصبح جزءاً من الأسرة. إما أن نموت معاً أو ننجو معاً.

أخرج من جيبه متراً وراح يقيس طولي وطول ذراعي وسألني عن مقاس قدمي: عليك أن تحلق لحيتك وضحك: وأنت تنظر في المرآة حاول أن تودع مظهر الرجولة إلى حين وتتقمص مظهر امرأة.

ـ اختارت العائلة لك اسم أم محمد. رتبنا الأمور على النحو التالي: أن يكون أخي سعيد هو سائق السيارة لأنه أكثر جرأة مني خلال السفر، زوجته قربه وفي المقعد الخلفي زوجة ابن عمي والفتاة مرام ثم أنت.

ـ وأنت؟

ـ معكم على الموبايل حتى تعبروا الحواجز سالمين.

ـ وكأنك تخمن السلامة!

- اتكل على الله يا رجل. وشوشتني ملائكتك السرّيون بأنهم سيقومون بالتغطية وتعمية الحراس. قال نبيل ذلك للشد من عزيمتي. وأضاف: قطعت الألف ميل ولم يبقَ سوى أميال قليلة.

خلال يومي ما قبل الرحيل هجرني النوم. بين اليقظة والسهو كانت الخيالات والذكريات تتوالى على شاشة الذاكرة. ظلال مدينة عشت فيها أكثر من عشر سنوات. المدينة التي تغلغلت في خلايا الروح حتى صارت جزءاً مني.

روائح الأمكنة. الشوارع. المقاهي. الحدائق. ملاعب الرياضة. الأصدقاء - المكتبات - الحوارات الحارّة. مقرات الثقافة. المؤتمرات - المعارض الفنية. ضفاف الفرات المعشبة - شجر الغَرَب والحويجات. الطيور المهاجرة. الحب الضائع. عزلتي - والصدام بين اليأس والرجاء - مرضي والإحساس بالموت.

من خلال هذه الظلال الفارّة كشريط سينمائي انبثقت من أعماق زمن القراءة، وعلى نحو مفاجئ وغريب مقاطع من قصيدة لشاعر يوناني اسمه كافافي عاش في الإسكندرية، مقاطع تذكرت أنني سجلتها في يومياتي:

«وتقول لنفسكَ

سوف أرحلُ إلى بلاد أخرى

إلى بحارٍ أخرى

إلى مدينة أجملُ من مدينتي هذه.

المدينة تقصّ

وهي ستتبعكَ.

وأنتَ حين دمّرت حياتكَ

في هذا المكان

فقد دمرتها في كل مكان آخر».

غداً سنسافر إذن!

ألبسني كبروفة تجريبية العباءة السوداء والنقاب.

- هيا انظري إلى هيئتك في المرآة يا أم محمد. قالها بابتسامة سخرية تستبطن مرارة وداع وفقد.

الشبح الأسود المموّه بدا في المرآة كفزاعة مسحت شخصيتي القديمة وشكلي. نقلتني وهماً من عالم الرجال وأدخلتني بغتة في دنيا الحريم.

جرّبت الحذاء النسائي والجراب الأسود الطويل.

- حقيبتك النسائية مع أم عدنان وفيها أدوات الزينة مع قميص وسروال. أردف نبيل: تمام يا أم محمد؟ ضحكنا.

- تمام. التنكّر مكتمل.

في الصباح وأنا أتهيأ لمغادرة الغرفة مع نبيل أحسست بأن قلبي ينخلع ويتمزق عبر دموعي التي انهمرت وسالت على

الجدران والنوافذ والمكتبة والسرير والأرائك والكراسي والمطبخ وصورة نبيل المعلقة على الجدار مع زوجته يوم عرسهما.

وأنا أودع نبيل بحرارة أخوية متضامنة قال كاتماً غصة: لا تقل شيئاً الآن. نحن لا نقول وداعاً سنلتقي عندك في القرية أنا على قناعة أكيدة من ذلك. رافقتك السلامة.

قرب السيارة كانت النساء المحجبات من الأعلى إلى الأسفل بمن فيهن أم محمد يتهيأن للصعود.

- وأنتم في الداخل دعونا نقرأ سورة الشرح: نحن الآن نسافر في كف الرحمن وتحت جناحه. قال سعيد وهو يبسمل ويتلو:

«ألم نشرح لك صدركَ. ووضعنا عنكَ وِزرك. الذي أنقضَ ظهركَ. ورفعنا لكَ ذكركَ. فإن مع العسرِ يُسراً. إن مع العسرِ يُسراً. فإذا فرِغتَ فانصب. إلى ربكَ فارغَب».

عبرنا الحاجز الأول على مداخل الرقة. قدم سعيد هويته للمسلح «الداعشي» الملتحي. سأل: إلى أين أنت والحريم؟

- زيارة عائلية إلى سلمية. قالها سعيد بهدوء.

بعد الإذن بالعبور علّقت زوجة سعيد على مظهر هذه الكائنات اللابشرية: هؤلاء ليسوا من سكان هذه الأرض. كأنهم

مخلوقات قادمة من الغابات والكهوف بهذه اللّحى والملابس الغريبة.

وقالت مرام ابنة سعيد: إنهم مخيفون يا ماما.

- لا تخافي يا مرام. إن الله معنا. قال الأب مشجعاً.

وسأل: كيف حال ابنة العم أم محمد؟

- كما قلت نحن تحت جناح الرحمن والقدر. بدا صوتها حاملاً نبرة الرجاء والاستسلام للمصير.

كلما عبروا حاجزاً يهتف سعيد مطمئناً أخاه عن حال أم محمد. مضيفاً: الأمور ميسّرة بإذن الله والوضع طبيعي حتى الآن.

بعد عبور الحواجز الخمسة بلا عوائق تنفسوا الصعداء. عن بُعد لاحت اللافتة الخضراء: أهلاً بكم في سلمية.

بصوت مشترك خرجت عبارة: الحمد لله على سلامتنا جميعاً. دوّت في الفضاء كبشارة ولادة. قال سعيد: لقد حمتك الملائكة للمرة الأخيرة وهي ترتدي أوشحتها السوداء مشيراً إلى النساء اللواتي نزلنَ من السيارة.

هتف سعيد لأخيه: وصلت الوديعة سالمة إلى ديارها. تهانينا. قال ذلك بعد أن ترجّلوا جميعاً إلى الأرض. وحدها أم

محمد كان عليها أن تتحول داخل السيارة إلى يحيى بركات وهي تلبس السروال والقميص. في الوقت الذي كانت فيه سيارة صديقه تنتظره.

كان الوداع حميمياً ومؤثراً. ودّع يحيى النساء، وهو يعانق سعيد. تحت الدمع استشهد بكلمة مأثورة لنبيل قالها وهو يودعه: نأمل يا صديقي أن نشهد يوماً محاكمة تاريخية للشبيحة والقتلة وملوك الطوائف ومزوّري التاريخ وجميع من تخضبت يده وهو يسفك دم الشعب السوري البريء.

بحرون

2016 - 1 - 10

ملحق سياسي

ما عاد الصمت ممكناً

هنا اسطنبول لا القاهرة ولا الجزائر. هنا المقر الرئيسي لحزب العدالة والتنمية. وهو الإسم الحركي الملطف لحركة الإخوان المسلمين بشعارهم المركزي (وأعِدّوا لهم ما استطعتم من قوةٍ ومن رباط الخيل).

وهنا أيضاً المقر المركزي لائتلاف قوى الثورة والمعارضة السوري.

هنا اسطنبول عاصمة الدولة العثمانية التي حكمت العرب والسوريين أربعة قرون إبان الاحتلال العثماني، تحت شعار التتريك ومحو الهوية العربية، باسم الطورانية العثمانية.

في هذا المكان التركي «الشقيق» للعرب والسوريين يجتمع المؤتلفون السوريون من قادة الثورة: إسلاميون، يساريون، شيوعيون سابقاً، ليبراليون، مستقلون، مثقفون وكتّاب، وزعماء عشائر. يمثلون، في رأيهم، قيادة الشعب السوري، والثورة السورية. القادة الذين نسوا مجاعة سفر برلك ومشانق ومذابح جمال باشا السفاح في دمشق وبيروت للثوار الأبطال.

في قاعة أحد الفنادق المخصصة لهم تجري حوارات ومناقشات حادّة ومتصادمة ومتعددة الاتجاهات، حسب الأهواء والميول والقناعة لكل طرف من الأطراف وما يمثله من أفكار وإيديولوجيات.

في هذا المكان الآمن والمحروس من الأمن التركي، تدار عبر الفضائيات والحدود الآمنة على الأرض، المظاهرات والاحتجاجات الثورية التي تخرج كل يوم جمعة من المساجد والمقرات الدينية. هاتفة بتكبيرات الجهاد المقدس ضد النظام الطائفي وإسقاطه لأنه عدو الشعب وقامع له.

في حالات غالبة لم تكن القيادة العسكرية الميدانية تستجيب لمقررات وبيانات المؤتلفين البعيدين عن أرض المعركة، والمنعّمين في الفنادق التركية.

إذن نحن إزاء ثورة جهادية تجتاح المدن بشعارات إسلامية طائفية في مواجهة نظام استبدادي مافيوي هو الآخر.

نحن إذن لسنا إزاء ثورة ترفع شعارات العدالة الاجتماعية والحرية، تندد بالفساد والرشوة ولصوص رأس المال وتفاقم القمع واستشراء الدولة الأمنية، وحقوق الفقراء المهمشين والعاطلين عن العمل.

وهكذا حين انتقلت «الحالة الثورية» من طور المظاهرات إلى طور الصدام المسلح أصبحت الأرض السورية ممهدة

للجهاد الديني من المرتزقة الجهاديين القادمين من ليبيا والسعودية وأوروبا والأردن وقطر وتونس والقاعدة في العراق وسائر أصقاع الكرة الأرضية، عابرة الحدود التركية التي فتحت على طول المساحة الفاصلة بين البلدين لتأدية واجب الجهاد المقدس، الجهاد المسلح وجهاد النكاح فيما بعد.

السؤال الموجه إلى الائتلاف الثوري المعارض: هل هؤلاء المرتزقة القادمون من أكثر من ثمانين دولة هم البديل الثوري الاجتماعي والثقافي والحضاري عن ثورة العمال والفلاحين المستلَبة حقوقهم، وعن المثقفين المهمَشين، والأحزاب الديمقراطية، والعاطلين عن العمل؟ وهل هؤلاء البرابرة الذين يدمَرون السكك الحديدية والقطارات ويفجرون آبار البترول، ومراكز توليد الطاقة الكهربائية، ويهدمون السدود المائية، ويقطعون طرق المواصلات للنهب والقتل، ويغيرون على المصارف ويفككون المصانع والمعامل لتباع إلى تركيا. هل هؤلاء هم البديل الثوري؟

ما عاد الصمت ممكناً

في طول البلاد وعرضها تُهدم وتُحرق وتُدمر الدولة الآيلة إلى الشعب لا إلى النظام، هل هذه هي الثورة يا سادة الائتلاف الثوري المعاصر؟

ثم من الذي أيقظ الوحش النائم في أعماق النفوس التي تحوّلت من نفوس آدمية إلى غرائز حيوانية مفترسة تقطَع

أوصال الآخر وتطيح بالرقاب وتقذف بالجثث في الأنهار، تبتر أثداء النساء والصبايا وتعلقهن على الأشجار، وتعرضهن عرايا في الأسواق (كما حدث في حمص).

هل هذه ثورة المضطهدين والمهانين والمجوّعين في وجه مزرعة النهّابين والطغاة ولصوص البلد؟ أم هي تفجير واستثارة للغرائز والحقد الطائفي وقذف البلاد إلى الهاوية الدموية؟

نحن نعلم من دروس التاريخ أن المناضلين الثوريين في العالم يواجهون القمع والتعذيب وحتى القتل على تراب أرضهم، يدخلون السجون والمعتقلات ويموتون تحت التعذيب، كما حدث في الجزائر وفلسطين وجنوب أفريقيا وأمريكا اللاتينية وأماكن أخرى في العالم، لا من خارج أرض المعركة.

تنويه وشكر

من الأعماق أتوجه بالشكر لزوجتي وصديقتي أسمى، لما بذلته من الجهد والمثابرة وأنا أنجز هذا العمل. ما كان عملها على تنضيد النص على الكومبيوتر هو الجهد الوحيد، بل كانت معي لحظة بلحظة مشاركة بدقة ونباهة متذكرةً التفاصيل المنسية من كلمات يحيى بركات خلال لقائنا المشترك معه. لذا أستطيع القول بأن هذه الرواية هي بمثابة عمل مشترك في ظل ظروف الحرب وانقطاع التيار الكهربائي، والاكتفاء بالكتابة على الدفاتر تحت ضوء الفانوس.

كما أتوجه بالشكر إلى يحيى بركات «المفقود» أو الميت الحي، الذي زوّدني خلال زيارته بالكثير من تفاصيل الرواية.





«وكان أن جاءت الحرب فكانت ثالثة الأثافي.
الحرب التي بدأت روايتها بالدمِ والجنون والوحشية.

بدت كصدمةٍ عبرَ ربيعٍ دموي أسود، خلخل الروح والعقل واطمئنان السراب البراق الذي كنّا نحيا في ظلاله الخادعة.

الحرب التي عرّت لحاءَ الأشجار الخارجي وكشفت الجذور العفنة، وأخرجت إلى السطح تحتَ الشمس كُمون جراثيم الكراهية وديدان الأحقاد والرائحة البشعة للسّم الطائفي المُميت...

تحت ظلال قناعاتي بجوهر ما يجري من توحش ودمار، وتحت وطأة الزلزال الداخلي للروح والعقل، بدت لي الكتابة غُثاءً نافلاً مُرمى على شاطئ مهجور، كما تراءت لي على شاشة الذاكرة، أن سنوات الحفر عن التبشير بالتنوير خلال نصف قرن، نوع من العبث واللاجدوى، بدت كمن يحفر في صحراء «النفوذ» عن نهر مفقود...

لقد هُزِمت شمس التنوير وسادت ظُلمة البربرية».

في هذه الرواية يدوّن الروائي «حيدر حيدر» إدانته الصريحة للطائفية بدءاً، وللفسادِ والإرهاب وهمجية الحرب عبوراً ونهاية. إنها قصة واقعية يرويها إنسانٌ عاش جزءاً من ويلاتها القذرة وحصارها الجسدي والنفسي، والتي ندفعُ ثمنها جميعاً بلا استثناء.


9789933484095